عواطف وأمل

رواية تتحدث حول الشهيدتين عواطف الحمداني وأمل الربيعي

كمال السيّد

روايــة

بسم الله الرحمن الرحيم

اسم الكتاب: عواطف وأمل

رواية تتحدث حول الشهيدتين عواطف الحمداني وأمل الربيعي

تأليف: كمال السيّد

الطبعة: الأولى، سبتمبر ٢٠٢٢ - صفر ١٤٤٤ هـ

إعداد ونشر: مؤسسة كلمات للطباعة والنشر

البريد الإلكتروني: kaleemat.pub@gmail.com

kamal.alsayeed

كلمات

الموقع الرسمي

الفهرس

الإهداء	٨
ليست بداية	٩
عواطف وأمل	١٨
رسالة فاطمة	٢٣
عواطف	٢٧
في مهب العاصفة	٣٧
غداً سيصلب المسيح في العراق!	٤١
الحياة في موتكم قاهرين	٥٣
المهمّة الخطيرة	٥٥
موحان!!	٦٢
الذئب البشري	٦٣
كرسي الاعتراف!	٦٧
شباك البعث	٧٠
وتمرّ الأيّام	٧١
الموقف	٧٤
٢٧ مارس ١٩٨٢	٧٥
مخاض في الموقف	٧٦
١٠ آب ١٩٨٢	٨١

أزهار وأشواك	٨٣
٣٠ أيلول ١٩٨٢	٩١
أمل	٩٤
٣٠ أيلول ١٩٨٢م	٩٦
سجن الرشاد	١٠٢
وداعاً دعاء	١٠٢
حلّة الرحيل	١٠٤
قدوم فاطمة	١٠٥
عواطف وأمل	١١٠
الرسالة الأخيرة	١١١
رسالة أمل	١١٤
عواطف وآمال	١١٥
في تلك الليلة الخريفيّة	١١٥
٢٧ كانون الأوّل ١٩٨٢	١١٦
الأحد ١٤ كانون الثاني ١٩٨٣	١١٩
ستشرقين يا أمل	١٢٣
عواطف.. بلا وداع	١٢٤
عواطف وأمل.. لا وداع سنلتقي!	١٢٦
رؤيا	١٢٧
وادي السلام ٢٤ شباط ١٩٨٣	١٢٨
بغداد تشرين الثاني ١٩٩٩	١٣٢

«الشهادة أعظم نصر يمكن أن يحقّقه الإنسان»

محمّد باقر الصدر

أمي العزيزة..

لقد تبيّن من المحكمة أن مصيري هو الإعدام، وإنّي ولدت طفلة سمّيتها «دعاء»

عواطف

٨١/٨/٢١

الإهداء

إلى «دعاء»..

أصغر سجينة في التاريخ على الإطلاق..

كمال السيّد

ليست بداية

كان صباح يوم ٢٤ كانون الأوّل ١٩٨٢ قارس البرد.. يبشر بشتاء قاسٍ.. توقّفت سيّارة الصندوق الخاصّة بنقل السجناء لتنفيذ أحكام الإعدام.. في ساحة سجن «الرشاد» السجن الخاص بالنساء.. جدران السجن العالية مكللة بالأسلاك الشائكة.. القسم الثالث من السجن المؤلف من أربعة أقسام خاص بسجينات الرأي والقضايا السياسيّة.. مبنى السجن ينهض على أرض مستطيلة غير متساوية الأضلاع..

القاطع الأيمن من السجن يتألّف من أربع زنزانات مساحة كلّ منها ٣/٥ × ٢/٥ متر مربع.. أمّا القاطع المقابل للباب الرئيسي، فيتألّف هو الآخر من أربع زنزانات، فيما يتألّف القاطع الأيسر من ثلاث زنزانات تنتهي بالمغاسل، وتنفتح القواطع على ساحة تدعى «الشبكة»..

خرجت مديرة السجن «رافدة الجبوري» لتستقبل القادمين من سجن «أبو غريب» بابتسامة صفراء مصطنعة ارتسمت على وجهها الدميم.. رافدة الجبوري عبارة عن كائن يشبه المرأة؛ يعجّ بالعقد

النفسيّة.. جمعت رافدة قبح الصورة وقبح السيرة.

أشارت مديرة السجن إلى الرقيبة «أم سفيان» بإبلاغ السجينات عواطف نوري الحمداني وأمل الربيعي وفاطمة علي طالب الحسيني بالاستعداد للتوجّه إلى سجن أبو غريب الرهيب..

لقد حان موعد الرحيل إلى الأبديّة.. من سجن الرشاد شرق بغداد إلى سجن أبو غريب غرب بغداد.. هذه هي رحلة العمر.. من شرق إلى غرب.. وكلّ من عليها فان ويبقى ربّك ذو الجلال والإكرام.. الله سبحانه هو وحده الباقي، والوجود المطلق الممتد من صبح الأزل إلى ليل الأبد..

كانت السماء مثقلة بجبال من الغيوم.. وقد تراكمت السحب المخزونة بالبروق والرعود..

توجّهت الرقيبة أم سفيان لإبلاغ السجينات بالاستعداد.. وقد أزفت ساعة الرحيل..

فتيات في العشرينات من العمر.. فتيات بعمر الربيع.. يغتسلن غسل الشهادة، ويرتدين حلّة الرحيل البيضاء المطرّزة بآيات القرآن العظيم..

عواطف وأمل وفاطمة يعانقن أخواتهنّ بمحبّة وما تزال الابتسامة؛ ترتسم على وجه عواطف أمّا فاطمة فقد كسا وجهها القمحي الوجوم، فيما كانت أمل تنظر إلى السماء بأمل.. كانت ترنو إلى ما وراء السحب المتراكمة..

السماء تمطر على هون، وامتزجت قطرات المطر الصغيرة مع دموع الوداع الحزين.. ارتسمت لوحة حزينة في ذلك الصباح الخريفي المترع

بالأسى.. أصداء الصلوات على محمّد تنبعث رقيقة مؤثّرة.. ترددها حناجر طاهرة ذنبهنّ الوحيد أنّهنّ لم يسجدن للنمرود..

عواطف تصعد إلى الصندوق الحديدي تلتها فاطمة وبعدها أمل.. أغلق الجلاد الباب بعنف وقسوة..

ثمّة نافذة زجاجيّة صغيرة مشبّكة بقضبان أُفقيّة مساحتها عشرون في عشرين سنتمترا.. السيّارة الصندوق تنطلق في طريق ملتوية من شرق بغداد إلى غربها.. إلى سجن أبو غريب العتيد..

قطرات المطر تنزلق فوق زجاج النافذة الصغيرة، وعينا عواطف تطلّان على الفضاء.. عيناها النجلاوان تودّعان بغداد.. اقتربت أمل لتلقي نظرات الوداع الأخيرة..

تنبعث في الأعماق مقاطع من أنشودة المطر:

- مطر.. مطر..

أتعلمين أي حزن يبعث المطر؟

وكيف تنشج المزاريب إذا انهمر؟

وكيف يشعر الوحيد فيه بالضياع؟

بلا انتهاء؛ كالدم المراق كالجياع..

كالحب، كالأطفال، كالموتى - هو المطر!

- أكاد أسمع العراق يذخر الرعود.

ويخزن البروق في السهول والجبال..

حتّى إذا ما فضّ عنها ختمها الرجال..

لم تترك الرياح من ثمود..

في الواد من أثر..

أكاد أسمع النخيل يشرب المطر..

و أسمع القرى تئنّ، والمهاجرين..

يصارعون بالمجاذيف وبالقلوع..

عواصف الخليج، والرعود، منشدين: مطر.. مطر..

وكم ذرفنا ليلة الرحيل من دموع..

ثمّ اعتللنا خوف أن نلام - بالمطر..

مطر.. مطر..

وتدويّ في النفس المطمئنّة كلمات تضرّع نبيٍّ قهره الطغاة.

- قال ربّ إنّي مظلوم فانتصر..

ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر

وفجّرنا الأرض عيوناً.. فالتقى الماء على أمرٍ قد قدر.

بغداد ما تزال نائمة في أحضان الكرى، في ذلك الصباح الخريفي الحزين.. دوت أصداء رعود في الأفق المدلهم البعيد.. آه لبغداد التي لا

تثور!

وجلجل رعد مهيب مزّق أوصال الأرض.. استحالت عينا عواطف إلى سماوات ممطرة..

نهضت فاطمة.. كانت أمل تبكي من أجل صديقتها ورفيقة دربها..

فاطمة تحتضن عواطف:

- حبيبتي عواطف اهدئي.. لا داعي للعتاب.

السيّارة الصندوق تقترب من سجن أبو غريب الرهيب.. بدا كغراب يجثم فوق البراري الموحشة.. هنا خلف هذه الجدران القاسية تقبع مقبرة الأحياء!

توقّفت السيّارة في إحدى ساحات السجن الموحشة.. اقتاد الجلادون فاطمة وعواطف وأمل إلى مبنى في قاطع الإعدام قسم الأحكام الثقيلة.. وتمرّ ساعات النهار ثقيلة..

الشمس ما تزال وراء جبال السحب تقترب من خط الأفق.. كانت الأنوار تتضاءل.. بدا الأفق الغربي لوحة غارقة في حزن مرير.. لا يوجد مشهد أكثر حزناً من مشهد الغروب في فصل الخريف!

فاطمة تلج بهدوء غرفة صغيرة.. تبعتها عواطف وأمل.. في الغرفة كرسي كهربائي ومشنقة.. حبل المشنقة يتدلّى بقسوة بالغة كثعبان أسطوري..

الغرفة تطل من خلال نافذة زجاجيّة على قاعة كبيرة.. كانت في

ذلك الغروب الحزين تزخر بعدد كبير من شباب العراق ورجاله الأشدّاء وأبنائه الأوفياء.. كانوا ينتظرون تنفيذ أحكام الإعدام..

في آخر القاعة تنتصب عشرة أعواد ومشانق.. أصداء دوي كدويّ النحل.. بين دعاء ومناجاة وتراتيل الآيات.. مئة وخمسون من شباب العراق يترقبون ساعة الرحيل..

البعثيّون الأوغاد يبدأون حفلات الإعدام مع غروب الشمس.. تمتزج الأصوات.. تمتمات الدعاء والمناجاة والآيات لتؤلف سيمفونيّة الرحيل الوشيك..

وفي غمرة هذا المشهد المهيب.. ثمّة صوت يتعالى برفق.. صوت مترع بأحزان الأنبياء.. أصداء كلمات استحالت إلى نشيد لملايين المقهورين..

- يحسين بضمايرنا.. صحنا بيك آمنا!

لا صيحة عواطف هاي.. لا دعوى ومجرّد رأي

هذي من مبادئنا! صحنا بيك آمنا

النشيد الحزين تنساب كلماته المعبّرة المثقلة بأحزان الأنبياء..

ومع لحظات الغروب في ذلك اليوم.. بدأت حفلة إعدام مئة وخمسين من خيرة الشباب العراقي.. فيما العالم الغربي يحتفي بذكرى ميلاد السيّد المسيح الشباب يتقدّمون إلى أعواد المشانق.. كلّ شاب يتقدّم يسجد ويقبّل الأرض ثمّ يصعد إلى المشنقة حيث تلتفّ الحبال حول أعناق الشباب.. وتدفع الكراسي.. فتتدلّى الأجساد وهي ترتجف

بضع لحظات.. بعدها يُسقط الجلادون الأجساد فوق الأرض ويقومون بسحلها إلى قاعة أخرى.

وفي أثناء السحل لأحد الشهداء تغيّرت ملامح عواطف.. بعد أن لمحت وجه زوجها الحبيب علي ناصر شاوي! تمتمت بأسى:

- وداعاً أبا دعاء!.. وداعاً يا زوجي الحبيب ورفيق الدرب.. ها أنا الآن قادمة إليك سنكمل الرحلة معاً.. فانتظرني لأتبعك.

وضعت عواطف رأسها بين كفّيها ولاذت بصمت مهيب.. صمت مفعم بالأسى والحزن والخشوع..

عقارب الزمن الخريفي تدور وقد انتهت حفلة الإعدام لمئة وخمسين من خيرة شباب العراق.. هيمن الصمت في القاعة بعد أن كانت الحناجر تردد آيات من القرآن والذكر الحكيم.. بعد أن تردّدت بين جدرانها كلمات مناجاة، وبعد أن توحدت الأصوات لتنشد معاً: «يا حسين بضمايرنا.. صحنا بيك آمنا» أجل أزهقت أرواح مئة وخمسين من زهرة شباب العراق..

لأسباب ما تزال حتّى الآن غامضة؛ تقرر تأجيل تنفيذ أحكام الإعدام بفاطمة وعواطف وأمل.. وهنا كشر الوحش عن أنيابه و أصرّ على تنفيذ الحكم بـ «فاطمة الحسيني»؛ قال الجلّاد:

- الوقت يكفي لإعدام فاطمة!

ابتسمت فاطمة.. افتر وجهها الملائكي عن ابتسامة فيها حزن سماوي!

أراد الجلّاد اقتيادها فرفضت أن يمسها الشيطان!

تقدّمت نحو المشنقة بوقار.. كما لو أنها منصة انطلاق نحو الحريّة والخلاص من ويلات الأرض..

وضع الجلّاد الحبل الغليظ على «جيد الفتاة» وهنا قال الضابط الذي كان واقفاً:

- فاطمة عندك طلب أخير!

أومأت برأسها نعم..

طلبت كسرة خبز اقتطعت منها جزءً وأعطت الباقي إلى عواطف ونظرت إليها في رجاء أن توصل قطعة الخبز إلى الأخوات في سجن الرشاد..

ارتسم في خيالها وجه زوجها الحبيب «جمال» الذي اختفى وانقطعت أخباره تماماً..

ثمّة بصيص من أمل يشعّ في أعماقها.. انّه ربما هاجر إلى الأرض التي تشرق منها الشمس.. قلبها يحدّثها أنّه حيّ يرزق.. لكنّها لا تعرف أين؟!

أُعيدت عواطف وأمل إلى القاعة الكبيرة تمهيداً للعودة إلى «سجن الرشاد».. جدران القاعة بدت جداريات لكتابات عشرات الأقلام.. كانت أمل تقرأ وصايا أولئك الشباب قبل تنفيذ الأحكام القاسية.. وصايا وكلمات.

باقر الصدر منا سلاماً.. أي باغ سقاك الحماما؟!

- اللهمّ احشرني مع الزهراء ومع بنت الهدى

- يحسين بضمايرنا.. صحنا بيك آمنا

- إذا لم يسلمونا إلى أهلنا أرجو كلّ من يقرأ رقم التلفون.. يخبر أهلنا وأجره على الله

- يا صدر ألف يدٍ مُدّت مبايعة.. على المسير فهل وفّت إليك يد؟!

- من يقرأ كلماتي يدعو لي بالمغفرة استودعكم الله

أرجو من أختي الاعتناء بأطفالي.. خالدة

تسمّرت أمل أمام إحدى الكتابات:

- هل من فاعل خير يقرأ كلماتي هذه ويبلغ أهلي على هذا التلفون!!!!!!٢٨٢١ بعد دقايق سيعدمونني..

هزّت الأرقام وجدانها انّه رقم تلفون خالها وقد كتب اسمه!

وتمتمت بأسى: هينئاً لك الشهادة يا خالي العزيز!!

عادت لتجلس إلى جانب رفيقة الدرب والمحنة والمصير عواطف.. التي كانت تحدّق في الطريق الذي سحلوا فوقه جثمان زوجها الشهيد..

استقلت عواطف وأمل السيّارة الصندوق التي راحت تشق طريقها في ظلمة الليل والمطر باتّجاه شرق بغداد..

عواطف وأمل

نشر المساء الخريفي ظلاله القاتمة فوق سجن الرشاد، وتضاعفت الأحزان، واستحال القسم السياسي في سجن النساء إلى مأتم سماوي، وانبعثت الصلوات والمناجاة.. لقد ترك رحيل فاطمة وعواطف وأمل فراغاً مدوّياً، وسادت أجواء الوحشة، وانبعث تيار من الحنين في تلك الليلة الخريفيّة.. ليلة عيد ميلاد السيّد المسيح عيسى بن مريم..

استغرقت النسوة والفتيات في صلاة ودعاء ومناجاة، وتندمج أصواتهنّ لتؤلف سيمفونيّة مفعمة بألحان سماويّة.. ويكاد المرء أن يلمح أجنحة الملائكة ترفرف مثنى وثلاث ورباع..

كانت السماء تمطر على هون، وتتساقط قطرات المطر الناعمة في مشهد سماوي حزين..

وفي هدأة الليل انطلق صوت الرقيبة «سميرة» في القسم السياسي:

- البنات رجعن من أبو غريب! البنات رجعن!

وعمّت الفرحة المكان فكأنّه استحال إلى حديقة غنّاء تزخر بالعصافير والفراشات!!

أشرقت البهجة فوق الوجوه الحزينة، واكتحلت العيون بإطلالة عواطف وأمل.. لكن لا أثر لفاطمة!

وجه أمل ترتسم فوقه ابتسامة مفعمة بالأمل.. أمّا عواطف فبدا هادئاً ترتسم فوقه حالة من الوجوم.. غير أن عينيها النجلاوين بدتا نافذتين تطلّان على عالم بعيد.. عالم مفعم بالصفاء والسلام.

كانت عقارب الساعة تشير إلى ما بعد الساعة التاسعة.. ليلاً.. السماء ما تزال غائمة والغيوم ما تزال مشحونة بالبروق والرعود والمطر..

انبرت «أحلام البصري» لتكون في طليعة المستقبلين.. الفرحة تطفح فوق الوجوه.. عادت عواطف وأمل.. لكن فاطمة لم تعد.. لقد رحلت إلى أرض الوطن.. هناك في الأعالي الديار الباقية.. ديار الخلود في الأودية الظليلة.. حيث تتدفّق الجداول والسواقي والأنهار.. ألم يقل جدّها أمير المؤمنين عليه السلام من قبل:

- «فليصدق رائد أهله..

وليكن من أبناء الآخرة..

فإنه منها قَدِم وإليها ينقلب..»

تساؤلات تموج في العيون: أين فاطمة؟!!

لوّحت عواطف بكسرة الخبز.. والخبر!!

قالت عواطف: فاطمة.. راحت.. أوصتني أن أوصلها إلى الأخوات..

راحت عواطف تقتطع من قطعة الخبز أجزاء صغيرة توزعها على أخواتها.. العيون تموج بالدموع والحنين..

بالرغم من الإجهاد والإرهاق والتعب إلا أن عواطف كانت متحمسة لتروي تفاصيل ذلك اليوم الدامي.. هتفت من كلّ قلبها:

- هنّئوني يا بنات! رأيت «أبو دعاء» شهيداً!

وراحت تروي التفاصيل المزلزلة:

- أخذونا إلى غرفة الإعدام.. غرفة خاصّة بالنساء! يتدلّى حبل مشنقة واحدة.. حبل غليظ.. قدّر له أن يخنق أنفاس عشرات الفتيات!

الغرفة تطلّ من خلال نافذة زجاجيّة على قاعة كبيرة وقد انتصبت عشر مشانق..

القاعة الكبيرة تكتظ بمائة وخمسين من خيرة شباب العراق.. القاعة استحالت إلى خلية نحل.. كلمات دعاء ومناجاة وآيات من القرآن العظيم تطوف في أجواء القاعة..

وعقارب الساعة تمضي قدماً تدور.. وامتزجت دقات الثواني.. مع دقات القلوب التي أضناها الظمأ.. حان وقت الصلاة، فاصطفت حشود الشباب في صفوف منتظمة لأداء آخر صلاة.. فنظام البعث يقيم حفلات الإعدام قبل غروب الشمس، فهم يحشدون المحكومين بالإعدام منذ الصباح، ويتركونهم بانتظار غروب الشمس دون ماء وغذاء..

كلّ الشباب كانوا قد توضؤوا، واغتسلوا غسل الشهادة، أمّا الفتيات فقد كنّ يرتدين الأكفان المطرزة بالآيات تحت الثياب بعد الوضوء والاغتسال.. أجل كانت فاطمة قد ارتدت حلّة الرحيل البيضاء..

وبعد أداء صلاتي الظهر والعصر.. عاد دويّ النحل من جديد، وكانت كلمات الحمد والثناء والشكران وكلمات الاستغفار والصبر والسلوان تطوف بين الجدران فجأة ارتفع صوت شاب ظامئ..

- قتلنا العطش متى يعدمونا ونرتاح؟!!

أجاب شاب عن بعد:

- يا أخي اصبر.. وتأسّى بشهداء كربلاء وسيّد الشهداء..

تعالى دوي النحل.. وشيئاً فشيئاً.. انبثق صوت وحّد جميع الحناجر.. التي راحت تردد بحزن:

- يا حسين بضمايرنا.. صحنا بيك آمنا

لا صيحة عواطف هاي.. لا دعوى ومجرد راي

هذي من مبادئنا.. صحنا بيك آمنا!

- بشخصيتك لمسنا أوصاف.. ما انوجدت بشخصية

لمسنا بيك أبو الأحرار.. عرفنا الموت حرّية

لمسنا التضحية بشخصك.. عرفنا الشرف تضحية

لمسنا بيك أبي وما تلين.. عرفنا الذل عبودية

لمسنا قسوة أعدائك.. عرفنا احنا فدائيّة

عرفنا انظل بيدين يزيد.. من ايد إل قساوة إيد

عرفنا ولمّن اعرفنا.. صحنا بيك آمنا..

واستغرقت عواطف في بكاء هادئ.. وكانت الدموع تموج في عينيها النجلاوين..

الشمس في ذلك اليوم الخريفي الحزين تلامس الأفق الغربي حيث تتراكم جبال من الغيوم الداكنة..

تتساقط أجساد الشهداء من المشانق كما تتساقط أوراق الخريف.. أجساد الشباب تغمرها السكينة وهي تسحل باتجاه قاعة أخرى..

شعرت عواطف بمزيج من الفرحة واللوعة.. لوعة الفراق لشريك العمر ورفيق الدرب.. وفرحة النهاية الدامية.. ثمة مخاوف كانت تساورها وقد رأت تراجعاً في عزيمته وإرادته.. وساءها كثيراً أنه كان يخاطب أزلام النظام قائلاً: سيّدي!

خافت عليه أن يتراجع.. أن ينهزم.. نصحته عندما التقاها في المحكمة العسكريّة ألا يبدو ضعيفاً أمامهم..

لهذا فرحت وهي تراه يرحل شهيداً.. وهي تراه في قافلة الشهداء.. ومن أجل هذا خاطبت أخواتها: يا بنات! هنّئوني!

لأسباب غامضة أجّلوا إعدام الفتيات.. ولكن الجلاد الخاقاني أصرّ على إعدام فاطمة:

- الوقت يكفي لإعدام واحدة!

تروي عواطف تلك اللحظات تقول: إن فاطمة ابتسمت بحزن.. «ودّعتني فاطمة بحرارة.. ضمّتني إلى صدرها بشوق.. ودّعت أمل.. واستدارت صوب أعواد المشنقة.. وضعوا الحبل في رقبتها.. قال لها ضابط السجن:

- هل تريدين شيئاً؟ أو توصين بشيء؟!!

أومأت نعم وطلبت خبزاً..

لم يحدث قبل ذلك أن يسأل الجلاد الضحية عن طلبه الأخير!! هذه أوّل مرّة تحصل في أقبية البعث وسجونه ومعتقلاته!!

كما لم يحصل أن يطلب المحكوم بالإعدام خبزاً!! طلبت فاطمة خبزاً. أحضروا لها قطعة خبز، وضعت في فمها كسرة منه، وأعطت الباقي إلى عواطف توصله إلى أخواتها في سجن الرشاد!!

لا أحد يعرف سرّ الخبز.. لا أحد يعرف لهفة بعض السجينات في الحصول على جزء من خبز فاطمة بحيث تحتفظ بخبزها حتّى الآن!!!

تقول عواطف: إن فاطمة ابتسمت ونظرت إلى أختيها عواطف وأمل نظرة مفعمة بالحنان.. قبل أن يركل الجلاد الكرسي بقسوة وحقد..

ارتجف الجسد النحيل ثمّ غمرته السكينة.

رسالة فاطمة

رحلت فاطمة، وتركت رسالتها الأولى والأخيرة إلى أهلها وذويها وزوجها جمال الذي اختفى، وانقطعت أخباره إلى الأبد..

. بسم الله الرحمن الرحيم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته:

أبعث سلامي الحار المؤطر بالحب والحنان إلى أعزّ ما في الكون إلى قلبي أبي وأُمّي وعمّي وعمّتي الأعزاء مع قبلاتي الحارّة..

والديّ..

آه من الأيّام التي فرقتني عنكما..

أبي وأُمّي لقد كنتما نعم الوالدين العزيزين المخلصين في تربيتكما..

نعم؛ إنّي أتذكر دوماً كم حاولتما العمل على إسعادي..

وكم حاول عمّي وعمّتي أن يكونا أباً وأُمّاً لي.. ولكنّي لم أفِ بعهدي لكما.. والديّ وقرّة عيني ومهجة قلبي والدم الذي يسري في عروقي.. أرجو رضائكما عنّي، ومسامحتكما لي إن كنت أغضبتكما.

أخواتي إخوتي.. يا من تسامرنا معاً، وتربينا سوية تحت سقف واحد في ظل والدين حنونين.. رجائي منكم هو أن لا تُغضبوا أمي وأبي، و أن تسمعوا قولهما، و تساعدوهم.. إخوتي سامحوني إني طالما ضربتكم. سامحوني.. وليتني طير أستطيع الطيران لكي أراكم جميعاً..

سلامي إلى أخي العزيز كريم، وإلى أخي الحبيب سلمان كم بكيت كثيراً في يوم عيد ميلادك يا عزيزي، وكم كنت أتمنّى أن أحضر يوم ميلادك، وتقبل مني أحرّ القبلات يا صغيري الحبيب، وقبلاتي الحارّة إلى طالب مع أشواقي، و إلى قبول وفتحية وحمدية يا أحب الأخوات، وإلى دلال ومنال العزيزتين.

وإلى إخوتي كريم وعلاء وجلال ونبيل وهاشم وفؤاد..

وإلى زوجي العزيز جمال؛ أبعث إليك أحرّ أشواقي وحناني وحبي العميق، وأتمنّى لك السعادة..

و أبعث آخر قبلاتي إلى صغيريّ محمّد وأسعد..

أرجو مراسلتي على العنوان التالي: (يجب مراسلتي يا أعزائي) العنوان للمراسلة:

بغداد الجديدة مدينة الرشاد سجن الرشاد قسم الإصلاح الاجتماعي للنساء - قسم الأحكام الخاصّة ليد النزيلة فاطمة علي طالب.. وشكراً. ابنتكم فاطمة علي طالب.

وفي أسفل الرسالة خط أفقي يمتدّ من أوّل الصفحة إلى آخرها وبعد تستأنف فاطمة الرسالة في توجيه التحيات والسلام:

- وسلامي الحار إلى جدّتي العزيزة وأن ترضى عنّي، وخالتي أم فاضل وأرجو رضاها، وخالتي أم رامي وأرجو رضاها، وإلى زوجة أبي..

وسلامي إلى خالي أبو نضال وعمّتي أم نضال ونضال، وسلامي إلى عزيزتي أم سعد، وسلامي إلى أبو سعد وسعد وسعاد، وإلى فائزة ورجاء. وكلّ من يسأل عنّا..

وأخيراً أسأل الله ألا يكون آخر عهدي بكم.. احتفظوا برسالتي.. والديّ العزيزان وعمّي وعمّتي يمكنكما زيارتي في المواعيد التي تأتون وفقها حسب العنوان أربع مرّات في الشهر؛ أي كلّ سبت. السبت الأوّل من بداية كلّ شهر، والجمعة التي تليه، والسبت الثالث من نفس الشهر، والجمعة التي تليه.. وإذا كان السبت يصادف يوم عطلة فإن المواجهة تكون في اليوم الذي يليه.. أي يوم الأحد. موعد المواجهة من الساعة الثامنة صباحاً حتّى الحادية عشرة والنصف ظهراً.

ملاحظة: تكون هذه رسالتي الأولى والأخيرة، أما أنتما فبإمكانكما مراسلتي باستمرار.

موعد المواجهة الأولى والضروري أن تأتون فيها هي يوم السبت المصادف ١٩٨٢/٨/٧

ملاحظة: ما أطلبه منكم أعزّائي:

هو مبلغ من المال مقدار (٥) دنانير.

سجادة صلاة وتربة إزار صلاة سبحة ثوب جواريب نعال طبي.

وشكراً والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

ابنتكم المخلصة فاطمة علي طالب (التوقيع)

***

في اليوم التالي أو في اليوم الذي يليه اقترحت إحدى الأخوات عقد مؤتمر صحفي مع عواطف وأمل للحديث عن تجربتهما الشعوريّة في ذلك اليوم الخريفي المثير الذي صادف ليلة عيد ميلاد السيّد المسيح عيسى بن مريم عليه السلام.

وإلى أن يحين ذلك الموعد.. نعود من خلال ذاكرة الأيّام لنستكشف حياة عواطف الحمداني وأمل الربيعي.. البدايات والجذور وعناصر الشخصيّة والبذور..

وعن محن الإنسان المقهور في الزمن المرير..

عواطف

لـك أن تتصـوّر فتـاة جامعيّـة فـي السـنة الثالثـة، كان ذلـك فـي عـام ١٩٨١.. تنظـر مـن خـلال عينيهـا النجلاويـن إلـى المسـتقبل بأمـل.. فـي أعماقهـا يسـكن حلـم فـي وطـن حـرّ، وشـعب تسـوده القيـم الأخلاقيّـة، ويقـوده المخلصـون مـن أبنائـه.. كان هـذا حلـم ذلـك الجيـل مـن الفتيـات اللائـي انصهـرن فـي مدرسـة «بنـت الهـدى».. آمنـة حيـدر الصـدر التـي كتبـت «الفضيلـة تنتصـر».

ولـدت عواطـف نـوري محمّـد الحمدانـي عـام ١٩٦١ فـي مدينـة الحريّـة المجـاور لمدينـة الكاظميّـة.. ثـمّ انتقلـت الأسـرة فيمـا بعـد إلـى «حـي القادسـيّة» المجـاور لمنطقـة الحارثيّـة التـي يقطنهـا معظـم رجـال السـلطة وقـادة حـزب البعـث؛ ولهـذا فـان منطقـة الحارثيـة هـي الأكثـر اسـتغراقاً فـي الحيـاة الدنيويّـة الهابطـة والأكثـر ولاءً لنظـام البعـث..

هناك تصعب الحياة على الفتيات اللائي يرتدين الحجاب..

هفـا قلبهـا وقلـب شـقيقها «رفـل» إلـى حيـاة أخلاقيّـة، فكانـا زهرتيـن فـي حقـل مـن الأشـواك..

أسـرتها ثريـة تعيـش حيـاة لاهيـة حيـث تصـدح الأغانـي الهابطـة التـي يبثهـا التلفزيـون الحكومـي.. وهكـذا بـدأت فصـول المحنـة. وسـوف تضطرها الظـروف إلـى أن تتـرك دراسـتها فـي الجامعـة التكنولوجيـة فـي السـنة الثالثـة.. لينطفـئ أحـد أحلامهـا المتألقـة فـي أن تصبـح مهندسـة..

إن كلّ الذيـن ولـدوا فـي تلـك الأيّـام لا يمكنهـم أن ينسـوا مسلسـل الحـوادث المزلزلـة التـي بـدأت فـي الحـادي عشـر مـن شـباط عـام ١٩٧٩

للميلاد.. إن مواليد ٥٧ و٥٨ و إلى ٦١ و٦٢ و أخص الشباب الواعي قد شعر بعمق الهزّات.. منذ انفجار بركان الثورة الإسلامية في إيران وانتصارها في منتصف شتاء ٧٩.

في عام ١٩٧٤م أقدم نظام البعث العفلقي على إعدام الشيخ عارف البصري ورفاقه الأربعة، وحدثت ردود فعل محدودة.. تمثلت في تظاهرة احتجاجيّة أمام الطب العدلي سرعان ما شتتها البعثيون بإطلاق الرصاص.. وبعد ثلاثة أعوام أي في عام ١٩٧٧م أعلن نظام العفالقة حظراً رسمياً على زيارة الأربعين سيراً على الأقدام، وتحدّى الشعب القرار التعسفي.. وانتفض أنصار الحسين.. وانطلقت المسيرة في ظروف قاسية جداً..[1]

واتّضح من خلال تعامل النظام وتعاطيه مع انتفاضة صفر الكبرى في عام ١٩٧٧ أنه نظام همجي لا يتردد في إبادة الملايين من أجل التمسّك بالسلطة.. وسرت حالة من الاستسلام، وبدا نظام البعث قدراً صارماً لا يمكن مواجهته؛ غير أنه مع إطلالة خريف ١٩٧٨م بدأ غليان ثورة شعبية جماهيريّة كبرى في إيران.. لتسفر بعد شهور عن وقوع الزلزال وانتصار الدم على السيف.. يومها قال وزير دفاع إسرائيل موشي دايان: ما وقع زلزال سوف تصلنا هزّاته بعد قليل!!

وقال الرئيس الفرنسي آنذاك: ما حدث رصاصة انطلقت من عمق التاريخ لتستقر في قلب القرن العشرين!

وقال السيّد محمّد باقر الصدر في تلك الظهيرة العظمى:

---

١. يجد القارئ تفاصيل هذه الانتفاضة في رواية (السماء تفتح أبوابها في السماء).

- لقد حقق الإمام الخميني حلم الأنبياء..

وتدفقت الجماهير في مدينة الثورة شرق بغداد حيث يجثم سجن الرشاد.. تدفقت إلى الشوارع والأزقة وخرجت النسوة يزغردن وينثرن الحلوى..

في ذلك اليوم الخالد انطلق نداء القسم العربي في إذاعة طهران يهتف بصوت متهدج:

- هنا طهران! صوت الثورة الإسلامية في إيران!

واهتزّت تشكيلات ومنظمات حزب البعث، وتزلزلت دوائر العفالقة في بغداد..

وازدهرت آمال الملايين كما تزدهر المروج في الربيع، ولتبدأ فصول المواجهة الملحميّة الكبرى بين إرادة شعب مقهور يهتف عالياً: يا حسين بضمايرنا.. صحنا بيك آمنا!

وبين نظام دموي أموي لا يتورع عن قتل الملايين، ويعيد التاريخ نفسه، وتبدأ من جديد ملحمة كربلاء..

و برز السيّد محمّد باقر الصدر ليقاتل وحيداً نظاماً مدججاً بكلّ أسلحة الدمار، وظهر صدام في صورة الوحش الهمجي ليعيد إلى الأذهان شخصيّة يزيد بن معاوية بن أبي سفيان..

تحركت الدوائر الاستعماريّة، وزار العراق كارنتون وكيل وزارة الخارجيّة البريطانية بغداد، وأسفرت الزيارة عن الإطاحة بالرئيس أحمد حسن البكر، وصعود صدام التكريتي.. هكذا وبكلّ بساطة يظهر البكر على

التلفزيون، ويعلن استقالته من منصبه لصالح «الرفيق» صدام الذي بدأ عهده بتنفيذ مذبحة بقيادات حزبية؛ حيث أجبر صدام رفاقه على قتل رفاقهم وفي طليعتهم محمد عايش، وكان عايش قد تعرض لتعذيب وحشي ليدلي باعترافات ملفقة حول التآمر على صدام والاتفاق مع الرئيس حافظ أسد للإطاحة به!!

وظهر صدام وحشاً مصاصاً للدماء، وعمّ الخوف العراق من أقصاه إلى أقصاه.

وقد حطم الرعب مراكز التفكير المنطقي في شخصية الإنسان العراقي والشيعي على وجه الخصوص..

وتنازل الإنسان العراقي عن كرامته مقابل البقاء حياً وبأي ثمن!

في شهر رجب ١٣٩٩ حزيران ١٩٧٩ أقدم نظام البعث على اختطاف فتيات في الثانويّة لمجرد ارتدائهنّ الحجاب.. فقد اختفت بلقيس عبد الزهرة وخولة الدلفي و.. وكنّ في الخامسة عشرة والسادسة عشرة من ربيع العمر.. وانقطعت أخبارهن!

كما أقدم على اعتقال «سلامات عباس يوسف» وكانت في السادسة عشرة من العمر، وفائقة الغبّان وأزهار ونجاة ووفاء و عدد من الفتيات العلويات من آل المبرقع..

عقدت المحكمة العسكريّة جلستها في الثانية بعد منتصف الليل لتحاكم سلامات عباس ومعها عشرات الشباب بلغ عددهم ستين شاباً، واستغرقت محاكمتهم ثلاث ساعات فقط..

حكم على سلامات عباس بالسجن المؤبد من دون توجيه أي اتهام، وسيقت إلى سجن الرشاد شرق بغداد!!

سجنت هذه الفتاة بعد أن تعرضت لتعذيب همجي.. نقلت أثره إلى المستشفى.. لم يكن النظام البعثي الهمجي ليعترف بالسجين السياسي، لذلك وُضعت سلامات مع السجينات المحكومات بجرائم جنائيّة وجرائم مخلّة بالشرف!!! فتاة طاهرة نقيّة نقاء قطرات الندى تسجن مع مومسات!!![1]

كان البعثيون ومنذ تسلطهم عام ١٩٦٨م في انقلاب تموز قد سعوا جاهدين لسلخ المجتمع العراقي عن هويته، وبدأت سياساتهم بتنفيذ ما عرف بـ «الفتوة» و«الطلائع» وبث المسلسلات الهابطة.. أدت إلى ظهور أزياء فاضحة تتنافى مع الذوق الأخلاقي..

ومع ذلك فقد ظهر جيل من الفتيات المحجبات في عمر الزهور، وبدأ مجتمع المرأة الملتزمة ينمو شيئاً فشيئاً، وظهر زي للفتاة العراقيّة يجمع بين الأناقة والجمال والحشمة والوقار..

وهذا لم يكن ليحصل لولا جهود امرأة عرفت بـ «بنت الهدى».. التي كانت تتطلع إلى «إحياء جهاز إعلامي صامت ونحن في بداية المنعطف» هذا ما صرّحت به عليها السلام في مقدّمة «الفضيلة تنتصر»..

أما الشباب فكانوا يحجون إلى مدينة النجف الأشرف لزيارة السيّد محمّد باقر الصدر الذي أضحى ومنذ انتفاضة صفر ١٩٧٧م رمزا و بطلا!!

---

١. مزيد من التفاصيل يجدها القارئ في رواية (السماء تفتح أبوابها في السماء).

وفي خريف ١٩٧٨ ظهرت القصيدة الخالدة التي أصبحت نشيد الملايين من المقهورين:

- يا حسين بضمايرنا.. صحنا بيك آمنا!

لا صيحة عواطف هاي.. لا دعوى ومجرد راي!

هذي من مبادئنا.. صحنا بيك آمنا!

أجل إن عواطف وأمل وفاطمة وميسون وأحلام وسميرة و.. العشرات؛ بل المئات من الفتيات اللائي قُدّر لهن أن يخضن الصراع المثير في ظروف غاية في القسوة والمرارة في مواجهة غير متكافئة، ما يزال الغموض يكتنف ظروف زجّهنّ في أتون معركة أقل ما يقال عنها أنها كانت مغامرة؛ فكنّ ضحايا لـ «حرق المراحل» بعد بدء مرحلة الجهاد المسلّح..

وكانت قيادات الحركة الإسلامية تبحث مشروع القيام بانقلاب عسكري يطيح بنظام العفالقة.. ويبدو أن الداعية الكبير عبد الأمير المنصوري تمكّن من إقناع القياديين بفكرة الانقلاب بعد أن بلغ التنظيم العسكري مستوىً كبيرا، وأصبح يضمّ عدداً كبير من الضباط وضباط الصف..

غير أنه تمّ القبض عليه في ليلة ممطرة في مخبأه في مدينة الشعب.. كان عبد الأمير حينها في اجتماع مصيري في الكرادة، وبعد انتهاء الاجتماع أوصله القيادي في الحركة الإسلامية السيّد حسن شبر بسيارته، وودعه أمام باب الدار؛ غير أنه ما إن فتح الباب حتى تلقفته ذئاب البعث، وبدأت وتيرة حفلات الإعدام بالتسارع..

فـي ١٧ آذار ١٩٨٠ استشـهد الداعيـة الشـهير حسـين معـن أحـد أبـرز تلامـذة السيّد محمّد باقـر الصدر.. وقبلـه استشـهد السيّد قاسـم شـبر رمياً بالرصـاص وهـو فـي التسـعين مـن العمـر!

وفي يوم ٣١ آذار صدر قرار إعدام الدعاة بأثر رجعي!!

وفـي الأوّل مـن نيسـان؛ أي فـي اليوم التالـي نفـذ طالـب الفيزيـاء فـي كلية العلـوم «سـمير نـور علـي» عمليّـة بطوليّـة فـي مهاجمـة رجـل الماسـونيّة طـارق عزيـز قبـل أن يلقـي خطابـه فـي الجامعـة المسـتنصريّة..

لا نريـد الاسـتغراق فـي التفاصيـل فـ «السـماء تفتـح أبوابهـا فـي المسـاء» تـروي جانبـاً مثيـراً مـن تلـك الحـوادث الداميـة.. وفـي الطليعـة انتفاضـة رجـب الكبـرى ومـا تلاهـا مـن تداعيـات فـي نفـس يـوم العمليّـة ١ نيسـان ١٩٨٠ ظهـر الطاغيـة صـدام يتوعـد بالانتقـام لدمـاء «فريـال»، وفـي زيارتـه لجرحـى العمليّـة قالـت إحـدى الجريحـات البعثيـات لصـدام: سيّدي سـفّر الإيرانييـن! وبعـد سـاعات بـدأت سـلطات البعـث حملاتهـا لاعتقـال العوائـل مـن ذوي الأصـول الإيرانيـة، وتزامنـت هـذه الحمـلات مـع مداهمـات واعتقـالات لمئـات؛ بـل آلاف الشـباب المؤمـن!

أمـا بيـت سـمير نـور علـي الـذي استشـهد فـي جامعـة المسـتنصريّة، فقـد صـودر بعـد اعتقـال أسـرته وترحيلهـا إلـى إيـران!

أصبح ذلك البيت الدافئ في شارع فلسطين مقراً لـ «مديريّة أمن»

الثـورة.. هنـا تـمّ تعذيـب أمـل الربيعـي وفاطمـة الحسـيني بوحشـيّة لا يمكـن أن يتصوّرهـا الإنسـان!

وعلّقت على جدران غرف التعذيب مقولة «الرئيس القائد» التي تنص على:

- «أوصي الأجهزة الأمنيّة بإلغاء أي حدود لممارسات التعذيب ضد أعداء الثورة دون أي حرج أو خشية من مساءلة»

من كراس وصايا الرفيق صدام حسين

إلى الأجهزة الأمنيّة

كشّر النظام البعثي الهمجي عن أنياب تنزّ صديداً، وظهرت عنصريّته وطائفيّته في أبشع صورها...

واستحال ذلك البيت الدافئ الواقع في شارع فلسطين إلى بيت العنكبوت؛ بل إلى غابة موحشة تضج بعواء الذئاب والضباع.. هنا يمارس الكائن البعثي همجيته في أبشع صور الوحشيّة.. هنا تعرّضت فاطمة الحسيني الفتاة الرقيقة إلى أبشع أنواع التعذيب.. هنا أحرقوا جانباً من ساعدها بالتيزاب!.. هنا تجسّدت أروع صور البطولة والصمود في وجه الطغاة! أجل هنا في هذا المكان اضطرّت الظروف العصيبة والحملات القاسية والضربات الموجعة الحركة الإسلامية إلى اتّخاذ قرار المواجهة المسلّحة ضد نظام وحشي لا يفهم إلّا منطق القوّة والسلاح..

وجاء إعدام السيّد محمّد باقر الصدر في التاسع من نيسان ١٩٨٠م ليكون منعطفاً مصيريّاً في مسار الحركة الإسلامية..

وهكذا استعر لهيب الصراع بين قوّة الحق وحق القوّة!

وظهر النشيد الخالد:

باقر الصدر منّا سلاما..

أي باغ سقاك الحماما

أنت أيقظتنا كيف تغفو..

أنت أقسمت ألّن تناما!

يا شهيداً.. قام فرداً..

ينتضي للطغاة حساما..

أنت كالسبط حسينٍ..

قد أبيت الحياة مضاما

يا أبا جعفرٍ نم قرير العين..

إنّا هجرنا المناما..

نحن أقسمنا يميناً أن نضحّي

أو نرى الإسلام شرعاً ونظاما!

لا أحد يعرف ظروف قدوم ذلك الشاب الباسل على ناصر شاوي إلى بغداد.. هو من مواليد ١٩٥٩ في مدينة الحي ضواحي مدينة الكوت، وانشغاله في أعمال تجاريّة، وفي زمن المحنة تولّى مسؤوليّة الإشراف على الخط العسكري والتواصل مع جميع الخلايا بما في ذلك الخط النسوي..

وفي هذه الظروف تعرف على المهندس صباح طابو خطيب أمل

الربيعي، وعلي سيّد جمال الموسوي خطيب فاطمة علي طالب الحسيني، وعلى عواطف الحمداني وشقيقها رفل، وعلى العديد من الشباب الذين أقسموا على مواصلة طريق السيّد الشهيد محمّد باقر الصدر.. لقد أصغوا بضمائرهم إلى نداءاته خاصّة نداء النهاية الدامية..

.«وأنا أعلن لكم يا أبنائي أني قد صممت على الشهادة.. ولعلّ هذا آخر ما تسمعونه منّي..

و إن أبواب الجنّة قد فتحت لتستقبل قوافل الشهداء.. حتّى يكتب الله لكم النصر..»

من الطبيعي أن يكتنف الغموض نشاط عواطف وأمل وفاطمة وصباح وجمال وعلي و.. لأنّه كان نشاطاً خطيراً يجري في غاية من السريّة والحذر.. ففي ظلّ نظام دكتاتوري قمعي همجي يجب أن يكون التحرّك في غاية السريّة.. غير أن حملة الاعتقالات العشوائيّة مكّنت أجهزة أمن النظام من الوصول إلى أحد الكوادر المتقدّمة في حزب الدعوة، وكان يعرف بـ«الشيخ أبو محمّد» وهو المدعو راضي كعيد التميمي من مواليد بغداد ١٩٤٢م، ومهنته عامل فني..

وقد أدى انهياره في جولات التعذيب إلى مآسٍ لا حدود لها، وتمادى كثيراً في التعاون مع أجهزة أمن النظام في الإدلاء باعترافات على العديد من الفتيات بما في ذلك زوجته جميلة شرقي وشقيقتها كميلة شرقي.. وهكذا دمّرت اعترافات الشيخ راضي جميع خطوط العمل الجهادي.. وتمّ القبض على عشرات الفتيات والعديد منهنّ كنّ يقدمن مساعدات ماليّة لعوائل الشهداء والمعتقلين..

في مهب العاصفة

فـي تلـك الظـروف العصيبـة قـرّرت عواطـف وشـقيقتها «رفـل» مغـادرة البيـت.. كان البيـت مراقبـاً وقـد يتعـرّض لمداهمـات عناصـر أمـن النظـام!!

عواطـف تـودّع أهلهـا.. إخوانهـا و أخواتهـا.. عانقـت والدتهـا بحـرارة وامتزجـت دموعهمـا.. كانـت الأم تحلـم بـزواج ابنتهـا بعـد أن تقـدّم علـي ناصـر لخطبتهـا..

كانـت عواطـف تنتقـل مـن مكان إلـى آخـر.. ومـن أجـل أن يكـون تحركهـا مع علـي ناصـر مشـروعاً قـررا الـزواج؛ كان ذلك في أيلـول ١٩٨١؛ وكان زواجها هادئـاً فـي ظـرف حسـاس.. وقـد حضـر عقـد القـران بضعـة أصدقـاء ورفـاق الـدرب الدامـي المريـر.. انتقـل العريسـان المطـاردان إلـى بيـت متواضـع سيكون مقـراً سـرّياً ينطلقـان مـن خلالـه للقيـام بمختلـف العمليّـات.

***

كان البيت الصغير مفعماً بالسلام وكانـت ليلـة حالمـة.. فصـل الخريـف يثيـر مشـاعر الحنيـن فـي النفـس الإنسـانية، النافـذة تطـل علـى حديقـة صغيـرة وقـد نبتـت شـجرة برتقـال فتيـة.. البيـت يقـع فـي زقـاق هـادئ بعيـد عـن ضوضـاء الشـوارع، وفـي تلـك الأمسـيّة فـي مطلـع الخريـف.. كان صـوت رقيـق يأتـي مـن نافـذة فـي الجـوار، علـي يتطلّـع بحـب إلـى وجـه رفيقـة الـدرب المريـر وشـريكة العمـر.. ينظـر إليهـا نظـرات حالمـة امتزجـت مـع ذلـك الصـوت الرقيـق:

- أنـا يـا عصفـورة الشـجن..

مثل عينيك بلا وطن

بي كما بالطفل تسرقه..

أول الليل يد الوسن

واغتراب بي وبي فرح..

كارتحال البحر بالسفن

أنا لا أرض ولا سكن..

أنا عيناك هما سكني

راجع من صوب أغنية..

يا زماناً ضاع في الزمن

صوتها يبكي فأحمله..

بين زهر الصمت والوهن

أنا لا أرض لا سكن..

أنا عيناك هما سكني

لا تعرف عواطف سبباً لتأثرها بهذه الكلمات الرقيقة..

لا تعرف كما لا يعرف غيرها أن هذه الأشعار الرقيقة هي من نظم السيّد «علي بدر الدين» الذي عثر عليه قتيلاً في أحد أودية الجنوب اللبناني في تشرين الثاني ١٩٨٠؛ وقد اخترقت عدّة رصاصات قاتلة جسده كما

ظهرت على جسمه آثار تعذيب وحشي..

السيّد علي بدر الدين من مواليد ١٩٤٩، وكان طالباً في الحوزة العلميّة في النجف بعد أن أكمل دراسته الأوليّة في مدارس النبطيّة ليهاجر إلى النجف في عام ١٩٦٩؛ وكانت تربطه مع السيّد محمّد باقر الصدر علاقة وثيقة.. وقد قام بمحاولات جريئة من أجل إنقاذ أستاذه من بطش النظام البعثي المجرم..

وكانت لديه أسرار هي من وراء اغتياله على أيدي المخابرات الصدّاميّة وعلى ذلك النحو الدامي..

يروي في التاريخ ذلك الشيخ الغارق في السنين والحوادث.. أن علاقة ذلك السيّد الشاب اللبناني بالسيّد الصدر كانت أكثر من علاقة تلميذ بأستاذه، فقد كان السيّد محمّد باقر يغمره بالحنان لطهر قلبه وإخلاصه، وكان السيّد علي يحب أستاذه حبّاً جماً، وكان يخشى عليه من بطش البعثيين.. كانت لديه علاقات مع العديد من قادة البعث، وقد اكتشف نوايا النظام في القضاء على السيّد الصدر إذا لم يرضخ لإرادتهم، وقد أزعجهم كثيراً أن السيّد بعث برقيّة تهنئة إلى الإمام الخميني باسم الملايين من الشعب العراقي!

لهذا قام السيّد علي بدر الدين بالاتّصال هاتفياً على السيّد الصدر يستأذنه في زيارته.. كان ذلك في شباط ١٩٨٠ / ربيع الأوّل ١٤٠٠ هـ.. والسيّد حينها يمضي فترة الحجز في بيته..

استقرّ السيّد بدر الدين في غرفة الضيوف وحيداً.. حتّى الشيخ محمّد رضا النعماني جلس في مكان يتيح له سماع ما يقول الضيف

القادم من بغداد للوساطة وحل الأزمة مع سلطات البعث..

سمع الشيخ النعماني الضيف الشاب يدعو الله أن يوفقه في أداء مهمته!

.إلهي! بحقّ محمّد وآل محمّد.. وفّقني لحل هذه المشكلة وإنقاذ السيّد الصدر!

حضر السيّد الصدر لاستقبال التلميذ الضيف، ورحب بمقدمه، وسأله عن موقف السلطة وبماذا تفكّر! قال السيّد علي بدر الدين:

لقد سمعت منهم كلاماً خطيراً.. وأنا قلق جداً من ذلك.. إن ما يستفزهم حداً ويغيظهم ويثير فيهم الحقد عليكم هو تأييدكم للثورة الإسلامية في إيران.. لابد من إيجاد حل!

قال الصدر: وما ذا يريدون؟

- يريدون بعض التأييد لهم، والتراجع عن موقفكم من تأييد الثورة الإسلامية، يريدون أن تسحب الفتوى في حرمة الانتماء إلى حزب البعث، وأن تفتي بحرمة الانتماء إلى حزب الدعوة..

.وإذا لم أفعل؟

- والله يا سيّدي انهم يفكّرون بإعدامكم والتخلّص منكم.. لا حديث لهم إلّا هذا.. هؤلاء قساة لا رحمة في قلوبهم.. أرجوك يا سيّدي أن تفكر بقليل من التنازل لإنقاذ حياتك.. استشهادك خسارة كبيرة.

وهنا يسأل السيّد الصدر تلميذه:

- كيف ينظرون لما حدث في رجب وما أعقبه من حوادث؟

- إنّهم في قلق وخوف.. يخشون من تصاعد الأحداث.. يعتبرون ما حدث في رجب ثورة لم يكتب لها النجاح.. وخوفهم من تكرّر ذلك!

- لا أتنازل أبداً وموقفي ثابت، وإذا كانوا يفكرون بإعدامي فأنا مستعد!

وهنا ينتحب التلميذ قائلا والدموع تنهمر من عينيه:

- سيّدي هل من أمل ولو ضعيف؟

- أبداً!

- سأترك العراق وأسافر إلى لبنان.. لا أريد أن أبقى وأشاهد جنازتكم!

التلميذ الوفي يعانق أستاذه مودّعاً ويقبّل يده.. ويغادر المكان والزقاق والنجف إلى لبنان..

وبعد مضي تسعة شهور وجد قتيلاً في أحد الأودية وعلى جسمه آثار ثلاث رصاصات وآثار تعذيب بعثي همجي!![1]

غداً سيصلب المسيح في العراق!

بدا السيّد محمّد باقر الصدر في تلك الليلة من نيسان ١٩٨٠ ليثاً

١.. انظر: أحمد أبو زيد، السيرة والمسيرة ج٤، ص٢٥٠.

جريحاً مكبّلاً بالسلاسل، وما تزال نداءاته لم تصل إلى شعبه بعد..

وفي سحر تلك الليلة رأى السيّد رؤيا تبشّره بالخلاص من ويلات الأرض..

استيقظ قبل طلوع الفجر، وأيقظ تلميذه الشيخ النعماني للصلاة..

قال له:

- إني أُبشّر نفسي بالشهادة إن شاء الله!

- خيراً إن شاء الله؟!

- رأيت في عالم الرؤيا خالي الشيخ مرتضى (آل ياسين) وأخي سيّد إسماعيل جالسين كلّ منهما على كرسي وبينهما كرسي فارغ وهما ينتظران قدومي، ومعهما ملايين البشر كانوا ينتظروني أيضاً..

السيّد الذي أضرّت به الهموم حتّى بات نحيف الجسم وقد ظهرت عليه آثار الهزال.. كان الجسد يذوب والروح يسطع.. يروي للشيخ صور النعيم ومشاهد من الفردوس.

قال الشيخ متوجساً:

- لعلّ هذه الرؤيا تبشّر بالفرج والنصر إن شاء الله.

قال الرجل العظيم:

- الشهادة أعظم نصر يمكن أن يحقّقه الإنسان!

وفي ذلك اليوم أعاد السيّد الصدر كتابة وصيّته وقد تأهب للرحيل نحو الأبديّة.. طلب من أخته الوفيّة أن تسلّم الوصيّة إلى أم فرقان عند ذهابها إلى حرم أمير المؤمنين عليه السلام..

أزفت ساعة الرحيل.. عقارب الساعة تشير إلى الثانية والنصف من ظهيرة السبت الخامس من نيسان ١٩٨٠م، التاسع عشر من شهر جمادي الأولى ١٤٠٠هـ!!

جاء مدير أمن النجف ومعه معاونه وقال للسيّد:

- المسؤولون يودّون لقاءك في بغداد.
- إذا عندك أمر باعتقالي فنعم أذهب معك.
- نعم هو اعتقال!
- انتظرني حتّى أودّع أهلي!
- لا حاجة لذلك! اليوم أو غداً تعود!
- وهل يضرّكم إذا ودّعت أطفالي وأهلي؟!
- لا! لا داعي للوداع.. مع ذلك افعل ما تشاء.

اغتسل السيّد على عجل غسل الشهادة وصلّى ركعتين.. قبّل يد أمّه ضمّها إلى صدره.. راح يلثم اليد التي كانت تهدهد طفولته بحنان سماوي.. رجاها أن تدعو له.. راح يودّع أسرته فرداً فرداً أدرك الأطفال أنه الوداع الأخير..

لم تحتمل نبوغ ابنته بربيعها الخامس عشر مشهد الوداع.. أشاحت بوجهها الملائكي.. وضعت جبينها على الجدار، وراحت تبكي بألم.. أحاط الأب بذراعيه ابنته وراح يناغيها:

حلوتي! ابنتي! كلّ إنسان مصيره الموت.. مرّة يموت بسبب المرض.. أو يموت فجأة.. لكن الموت في سبيل الله أفضل بكثير وأشرف..

لو أنّني لم أقتل بيد صدام وجماعته فقد أموت بمرض.. إنّ أصحاب عيسى نُشروا بالمناشير، وعلّقوا بالمسامير على صلبان الخشب، وثبتوا على الإيمان.

لا تحزني يا صغيرتي.. كلّنا سنموت.. اليوم أو غداً.. إن أكرم الموت الشهادة.

ابنتي أنا راضٍ بما يجري عليّ.. حتّى لو أثمرت هذه النهاية الدامية بعد عشرين سنة!

انفجر الجميع بالبكاء وانهمرت الدموع..

اتّجه إلى زوجه وشريكة حياته.. فاطمة كانت تتطلع إليه، فرأت وجهه يسطع نوراً.. قال لها:

- يا أخت موسى! بالأمس أخوك.. واليوم النديم والشريك والحبيب..لك الله يا جنتي! ويا فردوسي! يا غريبة الأهل والوطن!

حملك بات ثقيلاً.. أنا ذاهب وسنلتقي هناك في مقعد صدق عند عزيز مقتدر!

انتظري ثلاثة أيّام.. فإن لم أعد فاذهبي مع والدتي وأطفالي إلى بيت أخي إسماعيل!

كانت شقيقته آمنة تحمل مصحفاً.. مرّ تحت المصحف الشريف ثمّ قبّله، وقبّل رأس شقيقته ومضى إلى قدره الدامي..

أسبغت والدته على وهن الوضوء، وصعدت إلى سطح البيت، كانت تنوء بعبء السنين.. وجّهت وجهها إلى فاطر السماوات والأرض..

نشرت شعرها الذي اشتعل شيباً، وكشفت جيبها، وتضرّعت إلى الله سبحانه أن يعيد إليها ولدها، وقالت في سجودها:

- اللهمّ ربّي أنت أعطيتنيه..

وأنت وهبته لي..

فاجعل هبتك اليوم جديدة..

إنك قادر مقتدر.

حلّ المساء ونشر الليل ستائره.. وكانت النجوم تومض في سماء كحلية كقلوب واهنة!

كانت تلك الليلة طويلة.. طويلة جدّاً.. ليلة مثقلة بالحزن والأسى والمرارة..

وأطلّ الصباح كئيباً..

فجأة تحدث ضجّة.. تمّ تطويق البيت وانتشر رجال الأمن..

احتمل الشيخ النعماني عودة السيّد وعودة إجراءات الحجز فتمتم: يا لها من نعمة! ما أعظمها!

قالت بنت الهدى:

- لقد جاؤوا لاعتقالي.. كنت بانتظارهم!

قالت ذلك وراحت تتأهب للرحيل والوداع!

توضّأت.. أحكمت حجابها.. وفي الساعة الثالثة عصراً دقّ أحدهم على الباب؛ بادرت السيّدة آمنة إلى الباب.. جاء صوت أجشّ:

- علويّة! السيد طلب حضورك إلى بغداد!

ردّت برباطة جأش وعزم:

- سمعاً وطاعة لأخي إن كان طلب حضوري!

لا تظنّ أني خائفة من الإعدام.. والله إنّي سعيدة بذلك.. هذا طريق آبائي وأجدادي.. القتل لنا عادة وكرامتنا من الله الشهادة.

قالت فاطمة بعد أن أخذت بيد شقيقة بعلها:

- أنا سأرافقها ونعود معاً!

وهنا قالت آمنة للضابط وهي تغلق الباب:

- لا تخف فأنا لن أهرب!

و التفتت إلى فاطمة:

- أختي أم جعفر! كيف تأتين معي.. ومن يبقى للأطفال؟!

ومن يرعى أمي؟ سأذهب وحدي والله يرعاني..

ودّعت آمنة فاطمة.. قبّلت أمّها.. لكن الوالدة الثكلى تبعتها تريد أن ترافقها قالت لأحد الذئاب:

- لن أترك ابنتي أبداً!

قال أحدهم بفظاظة:

- ننزلك في وسط الطريق..

ستعود إليك.

قال آخر:

- نريد أن تجيب على بعض الأسئلة.. ثمّ نرجعها إلى البيت!

أرادت أم جعفر أن تودّعها وتقرأ قوله تعالى: «إنّ الذي فرض عليك القرآن لرادّك إلى معاد»، لكن الأوغاد لم يمنحوها هذه اللحظات.

الأمّ الثكلى تلجأ إلى الصلاة والدعاء، تدعو الله أن يعيد إليها ابنها وابنتها.. وتمرّ ثلاثة أيّام وثلاث ليال.. بدا البيت خيمة تعصف بها الريح من كلّ مكان..

كان الأوغاد قد قطعوا الماء والكهرباء والتلفون عن البيت بعد الاعتقال.

خرجت فاطمة لترى ما إذا بإمكانها أن تشتري خبزاً.. بدا الزقاق مهجوراً.. مغبراً.. الصمت يهيمن في هذا الحي وقد خيّمت الكآبة على

بيوتـه المغلقـة الأبـواب.. حتّـى الدكاكيـن مقفلـة.. فـرن المخبـز كان مغلقـاً وقـد خمـدت نيرانـه، أدركت أنهـا كانـت تعيـش مع أطفالهـا فـي حـي مهجور.. ظلـت فاطمـة واقفـة غارقـة فـي حيرتهـا مـاذا بوسـعها أن تفعـل؟! تـرى أيـن سـكان الحـي.. هـل طـردوا؟ هـل فـرّوا خوفـاً؟! اتّجهـت إلـى رأس الزقـاق الـذي يفضـي إلـى شـارع زيـن العابديـن.. لكـن لا أحـد!!

وقع بصرهـا علـى سيّارة كانـت واقفـة.. فـي الشـارع مقابـل الزقـاق تمامـاً. وكان السـائق جالسـاً خلـف المقـود!

أدركـت أنّ هـذه السـيّارة تابعـة لأجهـزة الأمـن.. يبـدو أن السـلطة هجّـرت سـكان الحـي وقطعـت المـاء والكهربـاء والتلفـون عـن بيـت السـيّد حتّـى تضطـرّ الأسـرة إلـى مغـادرة النجـف إلـى الكاظميّـة! اسـتأجرت السـيّارة فوافـق السـائق علـى الفـور!

عـادت إلـى البيت، وأخبرت الجـدّة العجـوز، واصطحبت الأطفـال وتركت البيت دون أن تأخـذ منـه شـيئاً.. تركت هدايـا زوجهـا وأشـياء ثمينـة.. تركت كنـوز زوجهـا ومؤلفاتـه فـي أيّـام الحصـار.. كانـت تأمـل أن تعـود إلـى بيتهـا.. إلـى مهـد الذكريـات.. إلـى عشـها الدافـئ.. لـم يخطـر فـي بالهـا أبـداً أن ذئـاب الليـل سـوف تسـطو علـى كلّ شـيء وتحيـل جنينتهـا إلـى أرض جـرداء!![1]

كان يـوم الثلاثـاء الثامـن مـن نيسـان ١٩٨٠م موحشـاً.. وفـي الظهيـرة بـدا الجـو مشـحوناً.. متوتـراً، وشـيئاً فشـيئاً سـادت صفـرة كثيفـة.. اشـتدت لتتحـول إلـى حمـرة مخيفـة.. والغبـار يغمـر الأرض دون ريـاح حتّـى تعـذّرت الرؤيـة لأبعـد مـن أربعـة أمتـار.. وسـاد الوجـوم والخـوف الوجـوه، وأدّى

١. مريم برادران «نا»، ترجمة كمال السيّد، استناداً إلى رواية السيدة أم جعفر الصدر.

بعضهم صلاة الآيات وتساءل رجل بصوت يشوبه الحزن: أتراهم قتلوا سيّداً؟!

ولقد ظل هذا التساؤل أيّاماً حتى ظهرت الحقيقة!

نعم! لقد قتلوا سيّداً وحصوراً[1].

«الموت في الشوارع..

والعقم في المزارع..

وكلّ ما نحبّه يموت.

الماء قيّدوه في البيوت.

و ألهث الجداول الجفاف.

هم التتار أقبلوا.. ففي المدى رعاف.

وشمسنا دم.. وزادنا دم على الصحاف..

محمّد اليتيم أحرقوه فالمساء

يضيء من حريقه، وفارت الدماء.

من قدميه.. من يديه.. من عيونه..

وأحرق الاله في جفونه..

محمّد النبيّ في «حراء» قيّدوه..

---

١. كمال السيّد، الحسين يولد من جديد.

فسمّر النهار حيث سمّروه..

غداً سيصلب المسيح في العراق..

ستأكل الكلاب من دم البراق..[1]

***

«وكان قتل الإمام الصدر يعني أنه لم يعد هناك حياء.. ولم تعد هناك حدود؛ ولم يعد هناك معقول ولا معقول؛ ولم يعد هناك ما تتوقعه وما لا تتوقعه.. كل حرمات الشعب العراقي مستباحة ومهتوكة تحت سنابك حصان الغازي صدام»[2].

«خطاك أم ملاحم الزمن؟

وقلبك الكبير أم عصارة المحن

وحرفك الفضي في مسيرة الصراع

ما تاه في دوامة الضياع

يا راسماً في الرفض ألف لا.. ولم.. ولن..

ويا غريباً لفّ في رحلته الشراع..

وودّع الأحباب والوطن..»[3].

---

١. بدر شاكر السياب، الديوان، ج٢، ص٤٦٨.

٢. صافي ناز كاظم، يوميات بغداد، ص١٠٥.

٣. جواد جميل، صدى الرفض والمشنقة، ص١٨٥.

***

استعرت نيران المواجهة.. وقد شنّ نظام البعث هجومه العسكري الشامل للإطاحة بنظام الجمهوريّة الإسلامية الفتية التي كانت تواجه آلاف المؤامرات في الداخل والخارج.. وظهر جلياً أنّ أمريكا الشيطان الأكبر هي من وراء الغزو الصدامي للضغط على إيران الإسلام في إطلاق جواسيس السفارة الأمريكية في طهران، وقد تمكّن الجيش الصدامي ومن خلال الأقمار الصناعيّة الأمريكية من احتلال زهاء عشرين ألف كيلومتر مربع من الأراضي الإيرانية أي ما يساوي ضعف مساحة لبنان!!

وظهر الطاغية صدام يصرّح من خلال التلفزيون الحكومي ويشير إلى الخارطة قائلاً: إن الحدود مع إيران سترتفع إلى الأعلى!!

وفي داخل السجن الرهيب الممتد من دهوك إلى الفاو.. كانت حملات الاعتقال تشنّ على نحو يومي! وغيّب الآلاف في المعتقلات والسجون، وانقطعت أخبار عشرات بل مئات الشباب لا يعرف لهم أثر.. اختفى سيّد جمال وصباح طابو وقاسم كريدي وباقر درويش.. وفرّ الكثيرون خارج أسوار الوطن المقهور..

اختار العديد من المهاجرين أرض الإسلام من أجل حشد القوى لتحرير الوطن من همجيّة البعثيين..

- «في كلّ شبر بالعراق لنا يموت..

طفل و أعنية..

وخلف جدران البيوت

لنا عيون..

ترنو إلى كل الذين يهاجرون بلا وداع..

إلى المتاهة والضياع..

فيغرقون.. ويختفون..

بين الضباب..

وبين أتربة السنين..

ويحلمون.. ويحلمون..

يوماً يعود الغائبون..

إلى العراق.. إلى الحسين..

دمه المراق.. على الشواطئ والسواحل والبحار..

بين الصحاري والقفار..

في كلّ شبر بالعراق.. لنا نشيد وانتظار..

ولنا بيارق ألف ثار..

ولنا رجال..

يشعلون الحرب من أجل السلام..

يتوهج الدم في الظلام..

فيولد الغد والنهار..»

***

الحياة في موتكم قاهرين

كانت عواطف على تواصل مستمر مع أمل الربيعي وفاطمة الحسيني ونهلة هادي وكميلة شرقي.. وكانت أجهزة الأمن تواصل من جهتها حملات الاعتقال العشوائي والتحقيق مع المعتقلين وتعريضهم للتعذيب الشديد.. على أمل العثور على رأس خيط يقودهم إلى خطوط العمل المسلّح..

كان علي ناصر قد استأجر بيتاً في ضواحي الكاظميّة ليكون مقرّاً لنشاطه العسكري والأمني.. وهو نشاط اتسم بالسريّة التامّة.. وفي هذا البيت كان علي ناصر وعواطف يقودان العمل العسكري.. ومن المؤكد أن العديد من الشباب المؤمن كان يخوض معركة غير متكافئة ضد نظام همجي مدجج بالسلاح.. وكان سلاحهم بنادق كلاشنكوف ورمانات يدوية.. ومن غير المعقول أنهم كانوا يريدون إسقاط نظام البعث بهذه الأسلحة البسيطة!!

كانوا يخوضون معركة الثأر لدماء حسين العصر السيّد محمّد باقر الصدر وشقيقته بنت الهدى..

لقد اصغوا بضمائرهم إلى نداءات السيّد الشهيد الصدر وإلى ما جاء في ندائه الأخير:

- «وأنا أعلن لكم يا أبنائي أني قد صممت على الشهادة.. ولعلّ

هذا آخر ما تسمعونه مني» «و إن أبواب الجنّة قد فتحت لتستقبل قوافل الشهداء حتّى يكتب الله لكم النصر..»

علي وعواطف يعملان بكلّ إخلاص في التواصل مع الخطوط الحزبيّة في بغداد وبعض المدن.. وكانا ينقلان الأسلحة والرمانات اليدويّة..

قليلون جداً يعرفون أن بيت علي وعواطف عبارة عن غرفة عمليّات يشتمل على العديد من قطع السلاح وآلة طابعة وأرقام سيارات وهويات مزوّرة، وكلّ ما يحتاجه العمل العسكري والنضال المسلّح؛ وبسبب استغراقه في نشاطه لم ينتبه إلى اعتقال أحد رفاق الدرب «موحان» وانهياره في أولى جولات التعذيب واعترافه..

علي ناصر يمتلك سيّارة جيب يستخدمها لنقل السلاح والمتفجّرات إلى المجاهدين في العديد من الخلايا العسكريّة..

وكان هناك من يصوّر تحرّكات علي ناصر وعواطف وهما ينقلان السلاح!!

انهار «موحان» في أولى جولات التعذيب، واعترف على زهاء مائة وخمسين من الشباب!! وذهب إلى ما هو أبعد من ذلك في تعاونه مع أمن النظام.

وأدّى انهيار راضي گعيد التميمي «الشيخ أبو محمد» إلى كارثة بكلّ معنى الكلمة، فقد وشى بزوجته «جميلة شرقي»، وبعد استشهادها وحفاظاً على أطفالها تزوّجت شقيقتها من ذلك الشيخ الخائن الوغد.. واعتقلت هي الأخرى وهي لا تعلم بخيانة زوج أختها!

كلّ هـذا وكانـت فاطمـة الحسـيني تواصـل تحرّكهـا واتّصالهـا بالخـط النسـوي فـي الكـرادة وشـارع فلسـطين ومدينـة الثـورة وتواصلهـا مـع «الشـيخ» الـذي حـاول الحصـول علـى عنوانهـا لكـن دون جـدوى!!

وأدّت الاعترافـات إلـى تقويـض العمـل العسـكري، وكانـت دائـرة الخطـر تضيـق علـى عواطـف وأمـل وفاطمـة والعشـرات مـن الشـباب والفتيـات اللائـي اختـرن السـير فـي طريـق السـيّد الشـهيد الصـدر وشـقيقته شـهيدة الحـب الإلهـي بنـت الهـدى.

شـابة فـي العشـرين مـن ربيع العمـر، وشـاب فـي الثانيـة والعشـرين اختـارا السـير فـي الطريـق الصعـب.. فـي الطريـق الـذي أقسـمت بنـت الهـدى علـى السـير فيـه حتّـى النهايـة:

- قسماً وإن ملئ الطريق بما يعيق السير قدما

قسماً وإن جهد الزمان لكي يثبّط فيّ عزما

وتفاعلت شتّى الظروف تكيل آلاماً وهمّا

فتراكمت سحب الهموم بأفق فكري فادلهمّا

لن انثني عما أروم وإن غدت قدماي تدمى

كلّا ولن أدع الجهاد فغايتي أعلى وأسمى

المهمّة الخطيرة

لـم يكـن علـي وعواطـف علـى علـم باعتقـال موحـان وانهيـاره.. لـذا كانـا يواصـلان نشـاطهما فـي نقـل السـلاح ومـدّ خلايـا التنظيـم.. وذات يـوم

كشفت إحدى مفارز أمن النظام سيّارة الجيب، وراحت تطاردها، انتبه علي وحاول الإفلات بأقصى سرعة.. سيارة الجيب تسير في شوارع بغداد الرئيسيّة.. واستطاع علي الإفلات، والاستفادة من الأزقّة الضيقة.. وبسبب السرعة اصطدمت سيّارة الجيب بسياج أحد البيوت وأحدثت فيه أضراراً كبيرة.. وخرج ربّ الدار وزوجته منزعجين!!

حتى بناتهم المراهقات خرجن.. كنّ جميعاً سافرات وترجلت عواطف بوقار وابتسمت وهي تحييهم بلطف!

وترجل علي من السيّارة وطمأن صاحب البيت بأنّه سيصلح الجدار قال:

- وهذه زوجتي والسيّارة تبقى عندكم لحين إحضار من يعيد ترميم السياج!

وأمام ابتسامة علي وعواطف تبددت أجواء التوتر..

أدخل علي سيّارة الجيب في الكراج، وجلست عواطف مع الأسرة، وذهب علي ليحضر من يعيد ترميم السياج..

كانت شمس تشرين الثاني قد جنحت نحو المغيب ومازال جهاز التلفزيون يبث الأغاني التي تمجّد صدام وقادسيّته الرعناء!

حلّ وقت صلاة المغرب.. استأذنت عواطف لتؤدّي الصلاة.. تعمدت أن تؤدّي صلاتها بدقّة.. فقد لاحظت أن أفراد الأسرة كلّهم لا يصلّون.. البنات يرتدين ثياباً لا تراعي الحشمة..

وفيما كان علي مستغرقاً في مساعدة البنّاء لإصلاح البنيان استثمرت

عواطف الفرصة لتصلح الإنسان!

راحت عواطف تتحدّث بودّ عن الدين والإيمان والأخلاق والالتزام بالحجاب..

الصدق والحب يشعّان من عينيها.. الفتيات المراهقات كنّ يصغين بإعجاب إلى حديث عواطف الطالبة الجامعيّة في كليّة الهندسة..

الحياة الإنسانية ستكون أكثر جمالاً في ظلال الإيمان.. الفتاة ستكون أكثر جمالاً عندما تكون محجّبة..

فاكهة البرتقال بهية بقشورها المتألّقة.. وبمجرّد نزع قشرتها تتعرّض للالتهام.. الحجاب يحافظ على نقاء الفتاة المسلمة، ويزيدها وقاراً وجمالاً واحتراماً..

لم تخبرهم عواطف أنّها تقاتل من أجل تحقيق حلم الملايين في وطن حرّ كريم تسوده الفضيلة والمحبّة والنقاء.. لم تخبرهم بأنّها واثقة من أن «الفضيلة تنتصر»، وأن «نقاء» لن تبقى وحيدة جيلها.. لن تبقى غريبة.. غداً سيحطم العراق قيوده والأغلال التي تكبّل مسيرته..

أجل.. ستنتصر الدماء الطاهرة على حراب الطغاة.. وسيشهد الجيل القادم ساعة الانتصار ويوم الخلاص..

تمّ إصلاح السياج ليعود كما كان عليه قبل ثلاث ساعات.. استأذن علي ربّ البيت، لكنّه فوجئ بإصرار الأسرة على البقاء وتناول طعام العشاء. ابتسمت عواطف، وقالت في نفسها: ربّ ضارة نافعة.. لقد أنقذهم هذا السياج من خطر المطاردة.. وأتاح لـ «عواطف» أن تتحدّث

إلـى أفـراد الأسـرة..

عاهـدت الفتيـات عواطـف علـى ارتـداء الحجـاب، وأداء الصـلاة، والتـزام القيـم الدينيّـة.. ووعدتهـم عواطـف بزيارتهـم.. كلمـا سـنحت الفرصـة..

وكان مشـهد الـوداع صميمياً عكـس بشـكل جلـي مـدى تأثرهـم بشـخصيّة عواطـف وأخلاقهـا الكريمـة..

البهجـة تمـلأ نفسـها طـوال طريـق العـودة إلـى البيـت.. قالـت لزوجهـا ورفيـق الـدرب: مجتمعنـا مسـتعد للتغييـر.. ونفـوس النـاس كالأرض الخصبـة ينبـت فيهـا كلّ مـا يبـذر.

عبّـرت عـن تفاؤلهـا بالمسـتقبل؛ فنظـام العفالقـة زائـل لا محالـة.. إنـه جسـم غريـب سـرعان مـا يلفظـه الشـعب عاجـلاً أم آجـلاً.. وهـذا هـو قانـون الوجـود يأتـي الحـق، والباطـل زاهـق.. وقـد كتـب الله سـبحانه لأغلبـنّ أنـا ورسـلي! وسـيأتي اليـوم الـذي ينعـم فيـه هـذا الوطـن المقهـور بالحريّـة والعدالـة والكرامـة الإنسـانية.. أجـل سيأتي يـوم تشـرق فيه شـمس الحريّة..

***

حصلـت مديريّـة أمـن الثـورة علـى معلومـات كثيـرة، ولـذا كثّفـت البحـث عـن «فاطمـة» ومراقبـة عواطـف وزوجهـا علـي.. فاطمـة؛ لا يعرفـون عنهـا سـوى الاسـم فقـط، وقـد أخفـق «راضـي گعيـد» فـي الحصـول علـى العنـوان.. كانـت فاطمـة تثـق بـه إلـى حـدٍّ كبيـر إلّا أنهـا تجـد ضـرورة فـي إعطائـه العنـوان!

عناصـر الأمـن يراقبـون تحـرّكات عواطـف وعلـي، وقـد حصلـوا علـى صـور

عديدة التقطت لهما و هما يقومان بنقل السلاح!

من كان يلتقط الصور؟! بقي الأمر لغزاً محيّراً! لا أحد يعرف هل تمكّنت أجهزة الأمن من اختراق الحركة الإسلامية والنفوذ إلى داخلها والتسلل إلى خلايا التنظيم؟!

كان النظام قد قام بمناورة ذكيّة في إطلاق السجناء للكشف عن امتدادات الحركة داخل المجتمع.. أفرج عن الفتاة ذات السادسة عشرة ربيعاً.. وبعد أيّام بادرت قيادات حركيّة إلى ترتيب زيارة لأسرتها ولقائها للاستفادة من تجربتها المريرة.. باعتبارها أول فتاة أو امرأة تعتقل لأسباب سياسيّة! كانوا يريدون الاستفادة من هذه التجربة وكيفيّة التعامل معها.

تحدّثت سلامات عن أساليب التحقيق والتعذيب.. كان اللقاء في غرفة الضيوف بحضور شقيقها!!

وهنا فوجئت سلامات بسؤال يكشف عن سذاجة السائل في تلك الظروف العصيبة..

- العفو! عندي سؤال!

- تفضل!

- أثناء التعذيب كانوا يذبّون ربطتچ لو ما يذبّوها؟!

شعرت بالإحراج والمفاجأة فقالت:

لا! كنت لابسة الربطة!

- ومن تنّزع يرجعون يلبسونچ ياها؟ أولا؟

صُدمت الفتاة بهذه السذاجة والسطحيّة فاضطرّت للقول:

- مرّة ألبسها ومرّة لا.

- بشكل عام! تلبسيها؟!

- بشكل عام ألبسها!

تنفس ملء صدره وقال:

- الحمد لله!!

كان من الواضح أنّه يتخيّل اعتقال زوجته أو أخته فكان يريد الاطمئنان على حجابها داخل غرف التحقيق!!

يا لهذه السذاجة! لم تخبره سلامات أنها تلقّت أوّل صفعة على وجهها أطاحت بربطتها، وتدفقت دماؤها لتلطخ ضابط التحقيق، ونقلت أثرها إلى المستشفى..

كان القيادي في غفلة تماماً عن أنّه في غرف التحقيق وأقبية التعذيب.. لا تبقى حرمة للمعتقل فكلّ الحرمات مستباحة..

وأنّ أساليب التعذيب من الهمجية والوحشيّة بحيث يضطرّ فيها المعتقل إلى الاعتراف بكلّ ما يروون عنه، ويوقّع على أمور لم يقم بها وأعمال لم يرتكبها.. بل لم يسمع بها، ولم تكن لتخطر في باله!!

في هكذا ظروف عصيبة كان علي ناصر والعشرات من الشباب الرسالي يواجهون أعتى النظم الدكتاتوريّة، وأكثرها وحشيّة وهمجيّة على الإطلاق.. حتّى الذئاب الكاسرة أكثر إنسانية من الكائن البعثي!

كان علي يحمل في ذلك اليوم زبّيلاً مصنوعاً من البلاستيك وقد ملئ بـ «الرمّان» اليدوي، وكانت معه زوجه ورفيقة دربه عواطف؛ كانا يسيران في أحد الشوارع لإنجاز إحدى المهام الخطيرة..

وفي إحدى النقاط لمحه رجل أمن، وتمكّن من التعرّف عليهما، فشهر مسدسه وأجبرهما على التوقّف.. أدرك علي ناصر أن صوره موزعة على مفارز الأمن.. ولم ينفعه الإنكار.. وفي الأثناء توقّفت بقربهم سيّارة باص تابعة لـ «مصلحة نقل الركاب»، وهنا وعلى وجه السرعة بادر علي ناصر إلى دفع رجل الأمن إلى داخل السيّارة التي كانت تغصّ بالركاب المتجمهرين عند الباب؛ فما كان منهم إلّا أن يتلقفونه متصوّرين أنه يريد الصعود إلى الحافلة.. ولم يتمكن من الإفلات منهم إلّا بعد أن اختفى علي ناصر عن الأنظار! لذلك راح يطارد عواطف التي لمحت على وجه السرعة سيّارة حديثة مكتوب عليها «إدخال كمركي مؤقت» يقودها رجل أجنبي.. وكانت السيّارة مزوّدة بـ «باب سلايد» فسحبته ورمت نفسها داخل السيّارة وخاطبت الرجل باللغة الإنجليزية؛ أنها في خطر وترجوه مساعدتها..

وهكذا نجا كلّ منهما من الوقوع في براثن ذئاب أمن النظام البعثي المغولي.

وصلت عواطف إلى البيت قبل زوجها ورفيق دربها المرير.. وقفت في مدخل الزقاق تنتظر عودة علي بقلق!!

أما علي فكان هو الآخر يفكّر بـ «عواطف»، وعندما وقعت عيناه عليها تدفق في قلبه فرح طفولي.. فرحة غريب عائد إلى وطنه!

كان يشعر بالغربة طوال الطريق وقد عصفت به الهواجس، أما عواطف فقد شعّ في عينيها «العيد» قبل أن ترتسم على شفتيها ابتسامة اللقاء..

موحان!!

لم ينتبه علي ناصر إلى اختفاء صديقه المقرّب موحان.. ففي زحمة العمل يغفل المرء عن بعض الأشياء التي قد لا تشكّل أهميّة في هكذا ظروف.. لم ينتبه علي إلى أن اختفاء موحان كان بسبب اعتقاله!!

وفي اليوم الثالث جاء موحان للقاء علي ناصر في بيته، وفي هذه المرّة لم يدخل بل أصرّ على عليّ أن يرافقه لإنجاز أمر هام!!

ودّع زوجته وخرج معه ليستقلا سيّارة الجيب.

لم يكتشف علي الحقيقة المرّة إلّا بعد فوات الأوان.. طلب موحان من علي أن يجلس خلف المقود ليقوم بدفع السيّارة لأن البطاريّة ضعيفة!

في هذه المرّة لم يأخذ معه سلاحه! بدا الزقاق خالياً.. لم يكن علي ليشك في صديقه الحميم.. وأن كلّ ما يجري هو في الحقيقة فخّ للإيقاع به.. وأن ضباع الأمن كانوا يهابون مواجهته، لذلك رسموا خطّة لاستدراجه خارج البيت والقبض عليه.. لقد أخبرهم موحان أن صديقه هو مسؤول الخط العسكري، و أنّ في بيته مخزن لأنواع السلاح!

ومن المؤكّد أن علي ناصر لن يستسلم، وأنه سوف يقاوم إلى آخر رمق! لذلك نشروا عناصرهم في رأس الزقاق، وطلبوا من موحان أن يستدرج صديقه ومباغتته بهجوم مفاجئ!!

كانوا يراقبون الهدف بدقّة، وما أن شاهدوه يجلس داخل السيّارة حتّى بادروا كالضباع وقد شهروا مسدّساتهم، فيما تأهب بعضهم بإشهار بنادق الكلاشينكوف!

أذهلته المفاجأة والتفت إلى رفيق الدرب الخائن إلّا أنه كان قد توارى يحمل خزيه الأبدي!

قيّدوا يديه وعصبوا عينيه واقتحموا البيت الذي بدا قلعه محاصرة!

كانت عواطف تهدهد حملها الذي مضى عليه ثلاثة أشهر!! صدمتها المفاجأة، وأدركت أن زوجها قد اعتقل، فلاذت بالصمت. قيدوها وعصبوا عينيها وراحوا يطلقون «هوساتهم» في باب الدار احتفالاً بـ «النصر»، وفي ذلك اليوم الخريفي من أيّام تشرين سيق علي ومعه زوجه عواطف إلى مبنى مديريّة الأمن العامّة القريب من الباب الشرقي!

عاهدت عواطف نفسها على التكتّم على حملها، ودعت الله سبحانه أن يمدّها بالعزم على الصمود والثبات والمقاومة! فلقد سمعت الكثير من القصص عن أقبية التعذيب حيث لا حدود للقسوة.

الذئب البشري

استغرق الطريق حدود الساعة لتجد عواطف نفسها في براثن مديريّة الأمن العام، وهناك فرّق بين الزوجين.. لتجد عواطف نفسها أسيرة بأيدي وحوش بشريّة؛ الجلاد الذئب وكان قد غيّر اسمه من النقيب فيصل إلى الرائد عامر، وكان يعرف باسم آخر هو «عادل» أمّا اسمه الحقيقي فيقال «حذيفة» من أهالي مدينة النجف.. متوسط

الطول في وجهه صفرة وشوارب كثيفة، يلقّبه معاونوه بـ «الذيب»، لأنّه عندما يستشيط غيظاً يصرخ بضحاياه عاوياً كالذئب!!

له تاريخ أسود في الإجرام.. كان يعذّب ضحاياه بدم بارد، ويتفنّن في ذلك.. من مواليد عام ١٩٤٧.. عيناه تستعران حقداً.. يمزّق ضحيّته أثناء التعذيب.. إلى حدّ الانهيار والاعتراف أو إلى إزهاق الروح!

وقد ضاعف وحشيته بعد أن أهداه الطاغية قبل حوالي ثلاثة أشهر سيّارة حديثة «مازدا» حمراء اللون..

يساعده في التحقيق والتعذيب «ملازم حازم» إلى جانب «نقيب عدنان» و«نقيب قاسم» إضافة إلى المراتب «نجاة» من بغداد والسجّان آصف المتوحّش وقيس من أهالي الموصل وطلال من البصرة وشرطي معروف بـ «الگدع» من بغداد وكاظم من بغداد أيضاً..

استحالت مديريّة الأمن العام في تلك الأيّام إلى وحش مخيف يلتهم البشر شباباً وشيوخاً رجالاً ونساءً؛ حيث لا يتورع الشرطي فيه من أكل رؤوس الأطفال.. قرّرت عواطف المواجهة وسلاحها الإيمان والثبات لن تعترف بأيّ شيء..

بدأ الجلّاد باستجوابها وقد أغاظه هدوؤها وصمتها.

- الاسم؟

- عواطف.

- الاسم الكامل؟

- عواطف نوري محمد.

- اللقب.

- الحمداني!

بادرها بالسؤال حول نشاطها فأنكرت وقالت بإصرار:

- أكيد أكو اشتباه!

انزعج الجلّاد وأشار إلى أحد الجلاوزة، فانهالت السياط على عواطف.. هاجسها الوحيد جنينها الغافي في ظلمات ثلاث، وها هو يدخل الظلمة الرابعة في الشعبة الخامسة مواسياً الأم الشابة الأسيرة.

لا أريد البقاء في غرف التعذيب.. لا أريد الإصغاء إلى صراخ الفتيات تحت السياط، ولا أريد أن أصغي إلى أنين المقهورين المعذّبين وقد شلّت أطرافهم من كثرة التعليق في سقوف الغرف الملطخة بدماء الأبرياء!!

صمدت عواطف في جولات التعذيب حتّى عندما علّقت بـ «الگنارة» في سقف الغرفة بقيت على موقفها، وأنكرت كلّ ما وجهه إليها «الذيب» من اتّهامات..

أمر بإنزالها من سقف الغرفة الملطّخة بدماء الضحايا.. أجلسوها على كرسي.. نظراته الحاقدة تنفذ كالسهام.. كان يلوّح بصورة.. قرّبها من عينيها وقال بعصبيّة:

- تقولين بريئة! تقولين: مشتبهين!! هذه الصور لمن؟ كان وقع الصدمة شديداً.. حدّقت جيداً.. نعم؛ هذه صورتها وهي تحمل

كيساً فيه عدد من قطع السلاح والعتاد.. كانت تريد وضعه في سيّارة الجيب..

انعقد لسانها.. وابتسم الجلّاد شامتاً، ظهرت أسنانه الصفراء وهو ينظر إلى عواطف تضع رأسها بين ركبتيها وتبكي بصمت..

اقتادوها إلى غرفة تقع في نهاية الممر.. لم يعد هناك من جدوى للإنكار.. وكانت تلك الليلة الخريفيّة أطول ليالي العمر وأقساها!

أدركت عواطف بما لا يقبل الشكّ أنّ «العمل» كان مخترقاً، و أنّ تلك الصورة التي لوّح بها الجلّاد التقطها «صديق»، وربما كادر متقدم تمكّن الجلادون من خلال جولات التعذيب من تركيعه ودفعه إلى الخيانة..

شعرت بالأسف العميق، فقد قبض عليها ولم تقدّم ما كانت تطمح إليه من جهد إلى قضيّتها.. لم تدرك ثأر الشهيدين العظيمين السيّدين «الصدر» و«بنت الهدى»..

كانت تطمح إلى أن يكون لاستشهادها ثمناً كبيراً.. عندما رأت الصورة شعرت بطعنة قاسية لخنجر مسموم!!

- هل كنّا نزرع أشجاراً مخلوعة الجذور؟!

هل كنّا نزرع وهماً وسراباً؟!

«من حدود الأمس يا حلماً..

زارني طيراً على غصنِ

أيّ وهم أنت عشتُ به..

كنت في البال ولم تكنِ»

كرسي الاعتراف!

تعرّض علي ناصر شاوي لتعذيب شديد بإشراف الجلّاد عامر الهلالي والملازم حازم، حاول المقاومة إلّا أن ما عثر عليه من سلاح وعتاد وأرقام سيّارات وهويّات مزوّرة جعل موقفه ضعيفاً.. خاصّة و أن «موحان مهدي» أبو إيمان قد اعترف وذكر معلومات خطيرة تتعلّق بالخط العسكري.

موحان من أهالي مدينة الكوت.. يسكن في منطقة «باب الشيخ» في بغداد.. كان مهندساً ومقاولاً في نفس الوقت حتّى أن إحدى المقاولات التي رست عليه كانت في «مديريّة الأمن العامة»، فكان يتردّد على المبنى بقلب شجاع.. حتّى انّه فكر في خطة لتهريب الموقوفين في السرداب.. وقبلها كان أحد الأركان في التخطيط لعمليّة انقلابيّة مقرّرة في الرابع من تشرين الأوّل ١٩٨٠ م، وقد ألغيت بسبب كثرة الاعتقالات..

كان يتنقل بهويّة مزوّرة، وفي إحدى المرات تمكّن من الدخول إلى معسكر التاجي بهويّة نقيب استخبارات، وكان معه عدد من أبناء عمومته على أنهم عناصر حماية.. ونجح في الحصول على قطع من السلاح.. وتسليمه فيما بعد إلى علي ناصر شاوي لتوزيعه على خلايا المجاهدين!

كان بيته مقراً لاجتماع الدعاة، وكانوا بالعشرات فقد كان على تواصل مستمر معهم وخاصّة علي ناصر.

وقد سمعه علي ناصر ذات يوم يقول لأخوته الدعاة:

- إذا اعتقلت.. فسوف أعترف على كلّ شيء.. أنا أعرف نفسي لا أستطيع الصمود أمام التعذيب!

شاء القدر أن يتوجّه موحان مهدي لزيارة صديق ورفيق درب يسكن في منطقة «الشعب»..

لم يكن يعلم أن ذلك البيت كان يخضع للمراقبة الشديدة نتيجة للاعترافات.. لذلك نصب داخله كمين، وأصبح بيتاً للعنكبوت البعثي.. عندما طرق موحان الباب فتح أحد العناكب الباب وقام باصطياده.. كان موحان مسلّحاً إلا أن المفاجأة شلّته تماماً..

كانوا يبحثون عنه، وعندما اصطادوه لم يكونوا يعرفونه، وعندما عرفوه انهالوا عليه ضرباً وأطلقوا هوساتهم وأهازيجهم:

- قبلك بحسين شسوينا!

هكذا وبكلّ وقاحة يطلقون صيحاتهم المترعة بالحقد الأموي.

تساءل موحان بدهشة:

- أي حسين تقصدون؟!

أجاب الجلاد الخاقاني:

- نقصد «حسين جلو خان» و«حسين معن»!!

وقد كان من الواضح أنهم يقصدون الإمام الحسين عليه السلام الذي

مزّقت جسمه المضرّج بالدماء سنابك خيل النظام الأموي بوحشيّة!

أدّى انهيار علي ناصر إلى مسلسل مرير من الاعترافات طالت حتّى الموظّفات اللائي كنّ يقدمن التبرّعات لأسباب إنسانية لعوائل وأُسر الشهداء والمعتقلين..

وشهدت تلك الفترة حملات اعتقال العشرات من الشباب والفتيات.. وقد شمل الاعتقال عدداً كبيراً من الأبرياء ممّن لا صلة لهم من قريب أو بعيد بما يجري من نشاط عسكري أو سياسي وحتّى ثقافي واجتماعي.

وكان ضباط التحقيق يبررون ذلك بأنّهم كانوا يلقون «الشبكة» شبكة الاعتقال فيصطادون «السمك» و«البنيّ» و«أبو الزمير» و«الرفش» و.. الشبكة وما صادت!!

مرّة قال موحان للرائد عامر الهلالي ذئب مديريّة الأمن العامّة:

- ليش تعتقلون الناس الأبرياء؟ وأغلبهم ليسوا بدعاة!

أجاب الذئب:

شبكتنا تصيد السمك والجرّي وأبو الجنيب.. لكن بالنتيجة نصيد السمكة.. الشبكة وما صادت.

- لكن هؤلاء ضحايا أبرياء!

- أنتم الدعاة تقولون: صدام يقتل الحركة الإسلامية حتّى في مرحلة النوايا.. مثل ما فعل بريجنسكي مع معارضيه.. ليش هذا الاستغراب؟!

تذكّر موحان تصريحا للطاغية صدّام عام ١٩٧٤م عشيّة إعدام الشيخ عارف البصري ورفاقه:

«هؤلاء (شباب الحركة الإسلاميّة) مثل النمل ينتشرون في كلّ مكان، ولا ينفع معهم هدم البيوت.. الحرق وحده ينفع».

شباك البعث

البعثيّون يلقون بـ«شباك الصيد»، ويصطادون العشرات؛ بل المئات.. قبضوا على أخوات عواطف ووالدتها وصديقاتها وعشرات الفتيات.. قبضوا على «ليلوه كاظم علي الحجامي» و«سعدية وادي خشان» و«كلثوم حسن عبدالرضا» و«بشرى عبد علي» و«نهلة هادي موسى» و«آمال حسين محمّد» و«أنوار عبد الرحيم عبد علي» و«كوثر هادي محمّد» و.. أمل عباس الربيعي.. وانقطعت أخبار خطيبها؛ فلا هي تعرف عنه شيئاً، ولا هو يعرف عن خطيبته شيئاً.. كانا يحضّران لحفلة الزفاف والانتقال إلى عشّ الزوجيّة..

ولدت أمل في عام ١٩٦٠ في مدينة الثورة شرق بغداد.. وانتقلت أسرتها إلى الكرادة على ضفاف دجلة.. حصلت على البكالوريوس بعد أن تخرّجت من الجامعة، وعُيّنت مدرّسة قبل أن يتقدّم إلى خطبتها المهندس صباح علي طابو.

اقتيدت عواطف إلى الموقف وهو عبارة عن قبو تحت الأرض لتجد أكثر من سبعين امرأة وفتاة اعتقلن دون محاكمة.. تقرّر إبقاء القضيّة مفتوحة، وهذا يعني استمرار التحقيق والتعذيب واستمرار حملات الاعتقال والحصول على مزيد من «الاعترافات».

كانت الساعات تمضي ببطء وقد آلمها انهيار رفيق الدرب واعترافه حتّى على موظفات لا صلة لهنّ بالعمل الحزبي والسياسي؛ فقد كنّ يتبرّعن، ويقدمن مساعدات ماليّة لأسر وعوائل الشهداء والمعتقلين؛ فكانت عواطف تهتف في أعماق وجودها: لا!! لا! يا علي! ما هكذا ظنّي بك!!

لكن التعذيب الذي قاساه على يد الجلّاد عامر ذئب الأمن العامة قد يجعله معذوراً!!

من كثرة ما علّق بـ «الگنارة» شلّت يداه، وبقيتا مشلولتين مدّة أسابيع إلى أن استعاد حركته من جديد..

اقتيد علي ناصر شاوي إلى الموقف ليوضع في غرفة ما عرف بـ «المساعي الحميدة»؛ حيث يوجد أشخاص مهمتهم إقناع المعتقل بالاعتراف وتجنيب نفسه آلام التعذيب.. يحاول إقناعه بالاعتراف قبل حفلة التعذيب.

وتمرّ الأيّام

كان علي ناصر شاوي مكبّل اليدين في زنزانة «المساعي الحميدة»، جيء بشاب في العشرينات عُرف اسمه فيما بعد «علي هاشم»؛ جاؤوا به بعد جولة رهيبة من التعذيب..

عندما غادر الشرطي المكان اقترب منه علي، وهمس في أذنه قائلاً:

- إيّاك!! إيّاك أن تضعف وتعترف.. وتأكّد أنّ الله معنا والناس معنا والإمام المهدي معنا ومطّلع على حالنا ومواقفنا.. انقل هذه الوصيّة

لبقيّة الإخوة.. وصّهم بالصبر والتحمّل والثبات!

أما أنا؛ فقد اعترفت لأنّهم وجدوا في بيتي أسلحة وقنابل وأشياء أخرى كثيرة لا أستطيع إنكارها!

وعندما اكتشفوا أن علي ناصر لم يعد مجدياً في «المساعي الحميدة» رموه في «الموقف»، و أبقوا قضيّته مفتوحة بسبب حساسيّتها وتفرعات التنظيم الذي يقوده، وهكذا تمرّ الأيام..

في «الموقف» تعرّف علي ناصر على الكثيرين.. جمعته الزنزانة رقم «٣» مع بعض الشباب من مختلف الأعمار والمستويات، وترك في نفوسهم أثراً عميقاً، وأودع لديهم بعض الذكريات.. تعرّف على «أبو عقيل» الفرطوسي، وهو أحد الدعاة العاملين ومن الرعيل الأوّل، اعتقل على خلفيّة حوادث رجب ١٩٧٩، وكان أحد المشاركين في انتفاضة رجب، وأطلق سراحه ثمّ اعتقل بتاريخ ٢٩ تموز ١٩٨٢، كما تعرّف على «علي هليل الشمري»، وهو الآخر داعية له تاريخ عريق، خرّيج كليّة الإدارة والاقتصاد عام ١٩٧٦، اعتقل في ١١ شباط ١٩٨٠، و أطلق سراحه بعد شهر واحد ثمّ عادوا وقبضوا عليه عام ١٩٨٢، كما تعرف على المهندس عبد الكريم الصبّاغ يحمل شهادة ماجستير في الهندسة وقد تعرّض مرّة للضرب على كليته حيث راح يتقيّأ مادّة صفراء.. وعندما شعر بدنو الأجل تمدّد في الزنزانة، وراح يسبّح بحمد الله إلى أن لفظ أنفاسه الأخيرة.. وقبل ذلك كان قد دخل في حوار مع علي ناصر حول ما ورد من أفكار في كتاب «اقتصادنا»، كشف عن ثقافتهما وحبّهما للسيّد الشهيد!

دار حوار بينهما حول كتاب اقتصادنا فهو ليس كتاباً في الاقتصاد الإسلامي فحسب؛ وإنّما يطرح نظريّة في انبعاث الحضارة الإسلامية خاصّة عندما يقول: «التوجيهات الإسلامية هي قوانين علميّة تؤتي ثمارها متى توافرت الشروط التي تقتضيها هذه القوانين» وان الرسالة الإسلامية قد استطاعت أن تحدث هزّة روحيّة كبرى في نفس الإنسان العربي، وتفجّر في أعماقه الإحساس بالمسؤوليّة.

وان العلم لا يستطيع حلّ المشكلة الاجتماعيّة؛ إنّما يمكنه فقط أن ينبّه لها. العلم يمكنه أن يكشف عن الحقيقة بدرجة ما.. لا يمكنه أن يصنع حقيقة، ولا يمكنه أن يطورها.. الدين هو وحده صاحب الدور الأساس في حل المشكلة الاجتماعيّة عن طريق تجنيد الدافع الذاتي لحساب المصلحة العامة، وأشار علي ناصر إلى أن السيّد الشهيد يفلسف قيام الحضارة الإسلامية في قوله: الإنسان هو القوّة المحرّكة للتاريخ وان الدين هو الإطار العام لاقتصادنا.

وان الصِّدام المسلّح في صفين كشف عن عمق الانحراف في مسار الأمّة بعد رحيل النبيّ صلّى الله عليه وآله ليكون خليفة «بقوّة الحديد والنار وكان ذلك أعظم مأساة في تاريخ الإسلام».

وكان في تلك الزنزانة التي تحمل رقم «٣» المهندس «ليث حسين» والمهندس «كثير حميد» خريج الهندسة الكيميائيّة، وقد اعتقل منذ ١٩٨١م.. وكان في هذه الزنزانة العتيدة معتقل طيب القلب إلى حد السذاجة، قال له علي ناصر لتلطيف أجواء «الموقف» الكئيبة:

- جبر! عليك بروح الشهيد الصدر أُدعُ الله.. أنت قلبك طيّب.. الله

يستجيب دعاءك!

فما كان من جبر إلّا أن يرفع كفّيه، ويدعو الله من كلّ قلبه:

- ربّي¨! الله يخلّيك.. ما تخلّصنا من صدّام!!

وانفجر الجميع ضاحكين رغم مرارة «الموقف».

الموقف

سجّل علي ناصر موقفاً شجاعاً في «الموقف» عندما جاءت لجنة «السلامة الوطنيّة»، وهي مؤلّفة من ممثّلين لجهاز الأمن العام وجهاز المخابرات وممثّل من القصر الجمهوري، ومهمّتها حصر الموافقة لحالات الإعدام قبل رفعها إلى الطاغية صدام!

زارت اللجنة زنزانات «موقف» مديريّة الأمن العامّة.. وهنا حدث ما لم يكن في الحسبان نهض علي ناصر شاوي، وقال ببسالة الإنسان المؤمن:

- أي قانون هذا يسمح لكم أن تبقونا هكذا منذ تسعة شهور ونحن بلا محاكمة؟!

- أين هي حقوق السجين؟!

لماذا لا تعدموننا و تخلّصوننا من هذه الظروف السيّئة التي لا يوجد لها مثيل حتّى في سجون أسوأ حكومات العالم؟!!

ردّ أحد أعضاء اللجنة وهو يتميّز حقداً:

- هـذا الوضـع جيـد بالنسـبة لكـم.. كان الواجـب أن تحرقـوا بالنـار، ويـذرّى رمادكـم خـارج الوطـن.. حتّـى لا يتنجّـس العـراق!!

هكذا ينظـر هـؤلاء البعثيّـون القـذرون - وهـم مغـول التصـرّف العشـرين - إلـى شـباب الحركـة الإسـلامية الذيـن عاهـدوا السـيّد الشـهيد محمّـد باقـر الصـدر علـى المضـي قدمـاً فـي مواجهـة نظـام العفالقـة، وتحريـر العـراق مـن طغمـة حـزب البعـث المجـرم.

٢٧ مارس ١٩٨٢

بـدا الرائـد عامـر فـي هـذا اليـوم ذئبـاً جائعـاً وقـد تحوّلـت مديريّـة الأمـن العامّـة إلـى جحيـم لا يطـاق.. تصاعـدت وتيـرة التعذيـب، واشـتدّت همجيّـة الجلّاديـن.. وطـار النبـأ العظيـم.. الرفـاق ينسـحبون تكتيكيـاً مـن مدينـة المحمّـرة.. وقـد ألحقـت قـوّات الإسـلام الظافـرة هزيمـة قاسـية بقـوّات الغـزو البعثـي..

كان الجـلّاد يتميّـز غيظـاً وحقـداً.. وقـد جلـس علـى كرسـيه الصغيـر متهالـكاً بعـد مـا أمضـى جولـة قاسـية فـي تعذيـب شـاب فـي الخامسـة والعشـرين مـن عمـره.. بـدا فـي شـبه غيبوبـة ومـا يـزال معلّقـاً فـي سـقف الغرفـة.. وهنـا يدخـل شـرطي حقيـر يعـرف بـ «الگـدع»:

- سـيّدي! وحـدة بُنَيَّـة تحـذّر النسـاء مـن التوقيـع علـى الأوراق؛ گالـت إلهـن: لا توقعـون هـذه خدعـة!

عوى «الذئب» بوحشيّة وصرخ بـ «الگدع»:

- روح بسرعة جيبهه!

وركض الگدع ليعود بعد دقيقة وهو يجرّ فتاة في العشرين من ربيع العمر كانت تتشبث بعباءتها..

وما أن رآها الذئب البعثي حتّى نهض من كرسيّه الحديدي الصدئ، ويمسك به بكلتا يديه، ويرفعه عالياً ثمّ يهوي به على رأسها صارخاً بها:

- بنت الـ...! صايرة هنا «بنت الهدى»!

هوت الفتاة على أرضيّة الغرفة شهيدة كشمعة عصفت بها رياح الزمهرير!

أمر الجلّاد بسحلها إلى خارج الغرفة.. وكان جرمها الدامي يرسم خطاً قانياً كما لو أنه يرسم طريق الأنبياء!

مخاض في الموقف

وفي «الموقف» ذلك القبو الذي يشبه قبراً جماعيّاً، وفيما كانت عواطف تعاني من الآلام، جاءها المخاض في بدايات شهر حزيران ١٩٨٢..

وتتجلّى قدرة الله سبحانه، وينتصر مجد الحياة.. فقد شارفت المرحلة الجنينيّة على النهاية وبدأت مرحلة المخاض والميلاد..

وافق ذئاب البعث على إرسال عواطف إلى مستوصف قريب..

شاء الله سبحانه أن يصمد الجنين، ويتحمل صنوف التعذيب وآلام العذاب..

ذئاب البعث أخذوا عواطف إلى أقرب مستوصف، وكانت في حالة سيّئة.. ومع ذلك أنجبت طفلة سرعان ما سمتها «دعاء»..

وبعد الإنجاب عادت الذئاب بالأم وطفلتها إلى ظلمات «الموقف» في أقبية مديريّة الأمن العامّة.

استقبلت النسوة وفي طليعتهنّ نهلة هادي صديقتها في محنتها.. وكانت قد سألتها مرّة: هل أنت نادمة على ما قمت به؟

أجابت عواطف وقتها وهي تذرف الدموع:

- أختي! صديقتي لست نادمة على ما فعلت.. أنا نادمة على كلّ ما لم أفعل.. والله! الشهادة أملي وأمنيّتي.. وكنت أزداد شوقاً لها كلّما تعرّضت للتعذيب.. أشعر بالندم أنني لم أقدم شيئاً لديني، كنت أريد ثمناً باهظاً لاستشهادي!

استقبلت نهلة صديقتها بشوق وباركت لها ميلاد دعاء، كما عانقتها ابنة عمّها آمال حسين محمّد.. وأنوار عبد الرحيم عبد علي وكوثر هادي محمّد.. كانت عواطف في حالة سيّئة تحاول الابتسام.. قدّمت أخواتها ممّن ارتدين ثياباً إضافية تحسباً لهكذا ظروف.. قطع القماش لـ «دعاء» التي قدّر لها أن تفتح عينيها النجلاوين في أقبية ذئاب البعث المتوحّشة!!

وتمرّ الأيّام والليالي، وتنمو «دعاء» لتكون وثيقة إدانة ضد نظام العفالقة المجرمين!

دعاء أصغر معتقل في العالم على الإطلاق؛ فقد اعتقلت وهي ما

تـزال جنينـاً عمـره ثلاثـة أشـهر فقـط.. صحيـح أنّهـا ولـدت خـارج معتقـلات البعث إلّا أنّها ولدت في ظروف قاسية، وأعيدت إلى المعتقل بعد ساعات معـدودة فقـط!! وهكـذا ولـدت دعـاء فـي ظـروف قاسـية وعاشـت.. وتمـرّ الأيّـام، ويطـلّ شـهر تمـوز مـن جديـد، لكنّـه ليـس تمـوز «السـياب» وإنّمـا تمـوز العفالقـة مغـول القـرن العشـرين وسـلاجقة العصـر!

تصاعـد الضجيج الإعلامي حـول قادسيّة صدّام، وأضيف إليه ضجيج ذكـرى ثـورة ١٧ ٣٠ تمـوز «المجيـدة»، محرقـة القادسـيّة تزهـق آلاف الأرواح لجنود اُجبروا على خوض حرب ظالمة ضد إيران الإسلام، إيـران التـي أعلنـت قيـام النظـام الجمهـوري الإسـلامي، وسـلّمت مبنـى السـفارة «الإسـرائيلية» إلـى السـلطة الفلسـطينيّة بقيـادة ياسـر عرفـات الـذي أدار ظهره لفلسطين، وجاء لمساندة نظام البعث، وليصافح صدّام، ويصطف معـه فـي حربـه الظالمـة ضـد الجمهوريّـة الإسـلاميّة.. الجمهوريّـة الفتيـة التـي أعلنـت أنهـا دولـة مواجهـة ضـد إسـرائيل!!

الجمهوريّـة التـي أعلنـت آخـر جمعـة مـن شـهر رمضـان المبـارك يومـاً عالميـاً للقـدس!

لقـد سـقطت ورقـة التـوت، وانكشـفت سـوءة النظـام العربـي القومـي العنصـري الطائفـي!

أغمضت عواطف عينيها، فحلّق بها جناح الخيال إلى شمال بغداد؛ عبـرت الجسـر الـذي يـؤدّي إلـى مدينـة الكاظميّة.. تجتـاز الشـوارع، وتلـج الضريح الطاهـر للإمـام الكاظـم وحفيـده الإمـام الجـواد عليهمـا السـلام.

السـجين فـي معتقـلات البعـث هـو وحـده الـذي يـدرك أكثـر مـن غيـره

معاناة الإمام موسى الكاظم في سجن المطبق الرهيب، حيث لا يمكن للسجين أن يعرف الليل من النهار؛ فالظلمات متراكمة في ذلك السجن الذي يقع تحت سطح الأرض.. هناك في تلك الزنزانات تتجسّد مقولة أن السجن مقبرة الأحياء.. تألّقت في ذهنها كلمات تتدفق من نبع الحكمة «الدنيا سجن المؤمن»، ودوّت في وجدانها كلمات حسين العصر محمّد باقر الصدر في آخر محاضرة له حول حب الدنيا..

- «ما هي الدنيا؟! مجموعة من الأوهام!!

لكن دنيانا أكثر وهماً من دنيا الآخرين!!

«دنيا هارون الرشيد كانت عظيمة.. تعلمون أي دنيا حصل عليها هارون الرشيد؟!

من أجل هذه الدنيا سجن موسى بن جعفر!!

عادت إلى نفسها على أصداء كلمات تنساب هادئة.. كانت تنبعث من زاوية في الموقف.. صوت يتغنى بقصائد الشهيدة بنت الهدى:

قسماً و إن ملئ الطريق.. بما يعيق السير قدما

قسماً وإن جهد الزمان.. لكي يثبّط فيّ عزما

وتفاعلت شتى الظروف.. تكيل آلاماً وهمّا

فتراكمت سحب الهموم.. بأفق فكري فأدلّهما

لن انثني عما أروم.. وإن غدت قدماي تدمى

وجدت عواطف نفسها تشدو بكلمات بنت الهدى وهي تتنبأ بغد مشرق ووطن حرّ وقد حطّم الشعب السلاسل والأغلال:

. غد لنا إذا صمدنا ولم نضعف أمام العصبة الجاحدة..

فالله قد واعدنا نصره، والحق لا يخلف من واعده!

سترتفع راية إسلامنا.. نحو العلى خفاقة صاعدة

وينتصر دستور قرآننا.. رغم أنوف الزمرة الحاقدة

هتفت من كلّ قلبها وقد تأجج شوقها إلى أرض الوطن:

- ربّ ابن لي عندك بيتاً في الجنّة.

راحت تتأمّل في وجه دعاء وقد تألّقت فوق الوجه الملائكي ابتسامة تشعّ بالأمل..

وشعّت في أعماقها كلمات الشهيدة بنت الهدى تهيب بالفتيات بالمضي قدماً إلى رسم المستقبل المشرق.

- «إلى المجد يا فتيات الهدى..

لنحيي مآثرنا الخالدات

ونكتب تاريخنا ناصعاً..

مضيئاً بأعمالنا الزاهرات»

***

١٠ آب ١٩٨٢

في ضحى يوم العاشر من آب ١٩٨٢ اقتيدت كوكبة من الفتيات والشباب للمثول أمام المحكمة العسكريّة.. كانت عواطف تحتضن ابنتها دعاء التي بدت غافية بسلام.. دعاء أصغر معتقلة في عراق البعث.. كانت في أسبوعها السابع عندما استقرت في قفص الاتهام، وكان اللواء مسلم الجبوري متربعاً فوق كرسيه الفخم، وينظر من خلال عينيه الضيقتين إلى نخبة من الشباب والشابات وقد بدا على الجميع آثار الإرهاق والتعب وسوء التغذية والتعذيب..

بعد محاكمة صوريّة تكالب خلالها رئيس المحكمة والادعاء العام والمحامي الذي عينته المحكمة للدفاع عن المتهم؛ تكالبوا جميعاً ضد هؤلاء الشباب والشابات، فكانوا يطالبون بإنزال أشدّ العقوبات بحق «الخونة»!!

- حكمت محكمة الثورة على كلّ من علي ناصر شاوي وعواطف نوري محمّد بالإعدام شنقاً حتّى الموت وفق المادّة ١٥٦ من قانون العقوبات بدلالة المواد ٤٩ و٥٠ و٥٣ من قانون العقوبات، ومصادرة أموالهما المنقولة وغير المنقولة.

الحكم على كلّ من ليلوه كاظم علي الحجامي وسعديّة وادي خشان وليلى محمود غاوي وكلثوم حسن عبدالرضا وبشرى عبد علي بالسجن المؤبّد وفق المادّة ١٥٦ من ق. ق بدلالة المواد ٤٩ و٥٠ بدلالة المادة ٢٢ من ق. ع، ومصادرة أموالهنّ المنقولة وغير المنقولة.

- الحكم على كلّ من نهلة هادي موسى وآمال حسين محمّد

وأنـوار عبـد الرحيـم عبـد علـي وكوثـر هـادي محمّـد بالسـجن لمـدّة سبع سنوات وفق المادة ٢٠٠ من ق. ع على أن تحسب موقوفيتهنّ، ومصـادرة أموالهـنّ المنقولـة وغيـر المنقولـة..

وقّع رئيس المحكمة على الأحكام الصادرة بعد توقيع كلّ من المقدم الحقوقـي ياسـين عبـاس أحمـد والعقيـد الحقوقـي داود سـلمان شـهاب.. التفت اللواء مجرم الجبوري إلى عواطف نـوري الحمدانـي ثمّ إلى زوجها علـي ناصـر شـاوي وقـال بلهجـة تنضـح حقـداً:

- قـد نحتـاج إلـى مشـنقة صغيـرة لهـذه الطفلـة!! لأنّهـا رضعـت حليبكـم الحاقد!!

ضمّت عواطف طفلتها الصغيرة التي لم تبلغ الشهرين من عمرها!

عـادة مـا تنقـل المعتقـلات بعـد المحاكمـة إلـى سـجن الرشـاد فـي شـرق بغـداد، وسـجن الرشـاد هـذا يقـع بيـن مدينـة الثـورة ومنطقـة «الشـماعية» حيـث ينهـض أكبـر مستشـفى للأمـراض النفسـيّة فـي العـراق!

لكـن لا أحـد يعـرف لمـاذا طلـب مسـلم الجبـوري المليء بالعقـد النفسـيّة تأجيـل تنفيـذ الأحـكام بحـق عواطـف وزوجهـا إلـى مرافعـة أخـرى! لذلـك أعيـدت إلـى «الموقـف» فـي مديريّـة الأمـن العامـة! وهـو عبـارة عـن سـرداب تحـت الأرض تبلـغ مسـاحته ١١٢م حشـرت داخلـه زهـاء ٤٠٠ امـرأة وفتـاة!!

فـي «الموقـف» التقـت عواطـف صديقتهـا ورفيقـة الـدرب أمـل عبـاس التي تـمّ القبـض عليهـا فـي نفـس الفتـرة العصيبـة وهنـاك فـي هـذا «الموقـف» الرهيـب انكشـفت كثيـر مـن الأسـرار وفاحـت رائحـة الخيانـة!!

وان ذلك القيادي والكادر المتقدم في «الحركة الإسلامية» قد تحوّل في جولة للتعذيب إلى «اسخريوطي» سرعان ما راح يدلّ «أمن النظام البعثي» على رفاق الدرب والمسيرة؛ بل وذهب إلى ما هو أبعد من ذلك عندما وشى بزوجته وشقيقتها وكلّ ما كان يعرفه عن الخط النسوي في الحركة حتّى الفتيات اللائي كن يقدّمن معونات ماليّة لأسر وعوائل الشهداء والمعتقلين! «بلعم بن باعورا» و«الاسخريوطي» و«السامري» ليسوا شخصيّات تاريخيّة أصبحت جزءًا من الماضي! وإنّما يعاد إنتاجها في كلّ عصر وزمان.. شخصيّات تظهر خلال مسيرة الأجيال عندما تنتظم ذات الظروف التي ظهرت فيها تلك الشخصيّات التاريخيّة!!

نعم جاءت الطعنة الغادرة من شخصيّة كانت مسؤولة الخط النسوي في مدينة الثورة والكرّادة وشارع فلسطين و.. شخصية عُقدت عليها الآمال خاصّة بعد اعتقال العديد من شباب الحركة الإسلامية.. ومن المفارقات أن تصمد الفتيات الرقيقات وهنّ في عمر الزهور، وينهار كادر متقدّم قد بلغ من العمر أشدّه وبلغ أربعين سنة!! ولكنّه انسلخ في أوّل جولة للتعذيب ليصبح الاسخريوطي الذي دلّ اليهود على المسيح عيسى بن مريم!

أزهار وأشواك

من أجل أن نرسم لـ «عواطف نوري» - وقد بلغت ربيعها العشرين - صورة واضحة إلى حدٍّ ما؛ نقول إنها تنتمي إلى الجيل الذي صنعته «بنت الهدى» عليها السلام؛ آمنة حيدر الصدر التي تألق اسمها في عالم الأدب الملتزم تؤدّي رسالتها وتقف إلى جانب شقيقها الشهيد!

في مطلع السبعينات وقد كثّف نظام البعث من نشاطه المحموم في

سلخ المرأة العراقيّة عن هويتها من خلال برامج «الفتوة» و«الطلائع»، وتنظيم السفرات المختلطة، وإقامة المخيمات، وما كان يجري تحت جنح الظلام بين المراهقين الذين عاشوا تلك الفترة العصيبة من حكم البعث المنحط.. كانوا يدركون خطورة الانزلاق الاجتماعي في حمأة السقوط الأخلاقي؛ وقد أسهمت برامج التلفزيون في عمليّة الهدم الأخلاقي، وذلك من خلال بث الأفلام الهابطة التي تخدش الذوق الأخلاقي؛ بل حتّى برنامج مكافحة الأمية أُسيء استغلاله في توجيه حركة المرأة نحو (التحرر) من (القيود الأخلاقيّة)!!

كانت «عواطف» وشقيقها «رفل» زهرتين في حقل.. يعج بالأشواك.

وبدا نظام البعث وقد نجح في محاولته في سلخ المجتمع العراقي عن هويته، وظهرت أغاني هابطة وسخيفة من قبيل:

- استعجل يا ميل الساعة! مواعد حبيبي آني!!

وكان شعراء السلطة والأدباء المتملّقون يمجّدون الطاغية إلى حدّ التأليه والعبادة!!

وقد تحوّل الشعراء والأدباء إلى شرطة في خدمة الطاغية يقرأون ما يصدر من شعر أو يلقى، ويكتبون التقارير الكيديّة ضد الأدباء والأحرار كما حصل للشاعر «حسين المرواني» في قصيدته «ليلى»:

- أضعت في عرض الصحراء قافلتي

وجئت أبحث في عينيك عن ذاتي

نفيت واستوطن الأغراب في وطني

ودمّروا كل أشيائي الحبيبات

وقد اضطرّ الشاعر إلى الهرب من العراق، وبقيت القصيدة لا صاحب لها حتّى ادّعى كثيرون بعض أبياتها.. ثمّ ظهرت الحقيقة بعد سنين طويلة!!

ولهذا المشهد سابقة في تاريخ العراق عندما خلّد الشاعر «البحري» المعارض للنظام العبّاسي حادثة صلاة المطر أو «الاستسقاء»، ونظم أبياتاً من الشعر في توصيف مشهد الإمام الرضا عليه السلام وهو يؤم المجموع في البريّة قائلاً:

ذكروا بطلعتك النبي فهلّلوا

لما طلعت من الصفوف وكبّروا

حتى انتهيت إلى المصلّى لابساً

نور الهدى.. يبدو عليك ويظهر

ومشيت مشية خاضع متواضع..

لله لا يزهو ولا يتكبّر

ولو أنّ مشتاقاً تكلّف فوق

ما في وسعه لسعى إليك المنبر

وكان البحري يعيش متوارياً عن الأنظار كما هو الحال في «دعبل الخزاعي».

لذلك سنجد الشاعر الانتهازي «البحتري» يسرق هذه الأبيات ويمجد «المتوكل» الطاغية الذي يعد «صدام» إعادة إنتاج لهذه الشخصيّة الحاقدة على أهل البيت عليهم السلام!!

أجل ظهرت «بنت الهدى» عليها السلام في زمن عصيب فشعراء السلطة ينعقون وينهقون بتمجيد الطاغية الأرعن؛ يقول شفيق الكمالي وزير ثقافة البعث المنحط:

- وكيف وصدام مقدامها

وصدام صدام إذ يندب

ويقول متملّق آخر:

- يا فارساً في يديه السيف والقلم

وبين كفّيه يزهو العزم والكرم

أبا عدي ومن للشعر يلهمه

أن القوافي على كفيك تحتكم

أجل ظهرت مؤلّفات بنت الهدى وباكورتها «الفضيلة تنتصر» التي قالت في مقدمتها أنها بصدد إحياء جهاز إعلامي صامت ونحن في بداية المنعطف.

ظهرت مجموعتها القصصيّة في وقت كان المجتمع العراقي يعيش أزمة البحث عن البطل؛ وكان يتطلّع إلى أن يرى أبطاله يعيشون.. كان لديه حلم يشعّ في أعماقه..

وعندما ظهرت «الفضيلة تنتصر» شهدت انتشاراً واسعاً، ولقيت جميع أعمالها فيما بعد إقبالاً منقطع النظير..

إنّ الذين كانوا يتهاتفون على اقتناء مؤلفاتها لم يكونوا يهدفون إلى الإمتاع الأدبي بقدر ما كانوا يبحثون عن أبطالهم، ويتطلّعون إلى رؤيتهم يتحرّكون ويتنفّسون ولو في عالم القصص..

إن الظروف النفسيّة لجيل «عواطف» و«فاطمة» و«أمل» و«ميسون» أسهمت إلى حدّ كبير في نجاح السيّدة الشهيدة في أداء رسالتها..

وفي تلك المحنة القاسية ظهر جيل من الفتيات المحجّبات تحدّين النظام وقد كنّ في عمر الزهور..

وهكذا بدأ مجتمع المرأة الملتزمة ينمو شيئاً فشيئاً، وظهر زي جديد للفتاة العراقيّة يجمع بين الأناقة والوقار والحشمة والجمال!

أجل؛ إن هذا لم يحصل عفوياً! إنّما تقف وراء ذلك امرأة وسيّدة عظيمة تدعى «بنت الهدى»!

«عواطف» إذًا تنتمي إلى ذلك الجيل الذي آمن بـ«آمنة»، وسار على خطاها في الطريق الصعب!

«بنت الهدى» التي قدّر لها أن تؤدّي رسالة زينب الحوراء في مساندة شقيقها حسين العصر..

الشهيد السيّد محمّد باقر الصدر الذي استلهم نهضة جدّه سيّد الشهداء الذي هتف في صبيحة يوم عاشوراء:

- «أيّها الناس إنّ الله تعالى خلق الدنيا فجعلها دار فناء وزوال.. متصرّفة بأهلها حالاً بعد حال.. فالمغرور من غرّته والشقي من فتنته.. فلا تغرّنكم هذه الدنيا فإنها تقطع رجاء من ركن إليها وتخيب طمع من طمع فيها..»

لذلك أعلنها صرخة مدويّة:

- ما أرى الموت إلّا سعادة والحياة مع الظالمين إلّا برما..

وهتف حسين العصر في آذار عام ١٩٨٠:

- ما هي الدنيا؟!!

مجموعة من الأوهام.. لكن دنيانا أكثر وهماً من دنيا الآخرين..

وفي ندائه الأخير خاطب المجتمع العراقي:

- «وأنا أعلن لكم يا أبنائي! أنّي قد صممت على الشهادة.. ولعلّ هذا آخر ما تسمعونه منّي.. وأنّ أبواب الجنّة قد فتحت لتستقبل قوافل الشهداء حتّى يكتب الله لكم النصر..»

إن جيل الذين ولدوا في ١٩٥٧ إلى عام ١٩٦١ كان لديه حلم في وطن آمن مستقر ينعم بالمحبّة والخصب والحياة والأمل!

ولقد شعر المجتمع العراقي بالمرارة خاصّة في شهر صفر عام ١٩٧٧ عندما أقدم نظام البعث المنحط على خطوة جريئة يتحدّى بها مشاعر الملايين في منعه زيارة الأربعين سيراً على الأقدام؛ وجرى ما جرى في ذلك الشهر الحزين.. هنالك ظهرت حقيقة هذا النظام وعدائه الشديد

لأئمّة أهل البيت عليهم السلام وحقده الطائفي ضد أتباعهم..

كان النظام يواصل احتفالاته بـ «عروس الثورات» في ٨ شباط، وكانت الأناشيد والأغاني التي تطبل للنظام البعثي تصك أسماع الناس، فتترسب طاقة سلبية في العمق الاجتماعي، يومها كانت طائرتا ميغ ٢١ تحلّقان فوق رؤوس ثوار المسيرة الكربلائيّة في خان النص وتحطّم حاجز الصوت.. وقد شنت أجهزة النظام حملة اعتقالات واسعة ليحاكم بعدها قادة «حوادث الشغب»، فيحكم على بعضهم بالإعدام شنقاً وعلى آخرين بالسجن المؤبد!

وجاء شباط ١٩٧٨ لتدوّي قصيدة: «يا حسين بضمايرنا.. صحنا بيك آمنا» في ضمير الشعب لتصبح نشيد الملايين من المقهورين.. ويمرّ عام، ويهلّ شباط ١٩٧٩ وقد عاد الإمام الخميني إلى أرض الوطن بعد ١٥ سنة، وبعد عشرة أيّام انتصرت الثورة الإسلاميّة، ويأتي صوت المذيع في القسم العربي في إذاعة طهران متهدجاً وهو يهتف بحماس:

- هنا طهران! صوت الثورة الإسلاميّة في إيران!

وتنطلق الزغاريد والأفراح بهذا النصر العظيم، وتنتعش الآمال بالخلاص من نير نظام البعث المنحط..

ويعلن السيّد محمّد باقر الصدر:

- لقد حقّق الإمام الخميني حلم الأنبياء!

ثمّ يوصي أنصاره في كلّ مكان:

ذوبوا في الإمام الخميني كما ذاب هو في الإسلام!

لـن تنسـى أبـداً كلماتـه الأخيـرة وهـو يسـتنهض الشـعب العراقـي مـن أقصـاه إلـى أقصـاه مـن أجـل الثـورة ضـد نظـام البعـث الهمجـي:

- يـا إخوانـي وأبنائـي! مـن أبنـاء الموصـل والبصـرة.. مـن أبنـاء بغـداد وكربـلاء والنجـف.. مـن أبنـاء سـامراء والكاظميّـة.. مـن أبنـاء العمـارة والكـوت والسـليمانيّة.. مـن أبنـاء العـراق فـي كلّ مـكان..

إنـي أعاهدكـم بأنّـي لكـم جميعـاً ومـن أجلكـم جميعـاً.. وأنكـم جميعـاً هدفـي فـي الحاضـر والمسـتقبل..

فلتتوحـد كلمتكـم، ولتتلاحـم صفوفكـم تحـت رايـة الإسـلام مـن أجـل إنقـاذ العـراق مـن كابـوس هـذه الفئـة المتسـلّطة، وبنـاء عـراقٍ حـر كريـم تغمـره عدالـة الإسـلام، وتسـوده كرامـة الإنسـان، ويشـعر فيـه المواطنـون جميعـاً علـى اختـلاف قومياتهـم ومذاهبهـم بأنّهـم إخـوة يسـاهمون جميعـاً فـي قيـادة بلدهـم وبنـاء وطنهـم وتحقيـق مُثلهـم الإسـلامية العليـا المسـتمدّة مـن رسـالتنا الإسـلامية وفجـر تاريخنـا العظيـم..

وهكـذا قـدر لهـذا الجيـل مـن شـباب العـراق وفتياتـه.. أن يخـوض معركـة مصيريّـة ضـد نظـام البعـث الماسـوني المنحـط.

أعيـدت عواطـف الحمدانـي إلـى الموقـف.. وكانـت أجهـزة الأمـن قـد أفرجـت عـن والدتهـا وأختهـا.. وقـد حرصـت الأم علـى أن توصـل إلـى ابنتهـا مـا كان لديهـا مـن نقـود كانـت معهـا عندمـا دهمـت ذئـاب البعـث بيتهـا وقامـت باعتقالهـا..

أعيـدت إلـى الموقـف مـن أجـل حرمانهـا مـن فرصـة تخفيـف الحكـم إلـى السـجن المؤبـد بسـبب الحمـل أو الإرضـاع.. حتّـى هـذه النافـذة مـن الأمـل

قام هذا المجرم بإغلاقها؛ غير أن عواطف كانت تنظر إلى حكم الإعدام كما لو أنّه نافذة للخلاص من ويلات الأرض والرحيل إلى عالم مفعم بالصفاء والسلام..

٣٠ أيلول ١٩٨٢

أمضت عواطف نوري الحمداني أربعين يوماً في الموقف، وكانت حاملاً إلا أنها تكتّمت على حملها حتّى لا يستغل الجلادون ذلك في جولات التعذيب الوحشي!

وبعد ستّة شهور وضعت عواطف حملها وكانت أنثى؛ شاء الله عزّ وجلّ أن تكون بهية الوجه، وكان وجهها بيضوي الشكل يشبه وجه الأم التي كان لها من العمر عشرين سنة، وفي ١٥ تشرين الثاني عام ١٩٨١ اقتيدت إلى محكمة الثورة (العسكريّة) لتمثل ومعها زوجها علي ناصر شاوي والعشرات من نخبة شباب العراق أمام السفاك عواد البندر الذي حكم بالإعدام شنقاً حتّى الموت على معظمهم! وفي طليعتهم ما عرف بـ «جماعة الطاقة»، وكانوا مجموعة من المهندسين؛ النقيب غالب حسين وعبد الكريم الصبّاغ ماجستير في الهندسة، وقد توفي عبد الكريم في زنزانة رقم ٣ بعد تعرّضه للضرب الوحشي على كليتيه وراح يتقيّأ مادة صفراء فلجأ إلى زاوية الزنزانة يلفظ أنفاسه الأخيرة، وكانت كلمات التسبيح والحمد تنساب على شفتيه الذابلتين.. وكان فيهم الشهيد «كثير حميد» الذي ساعد إخوانه في إيجاد لغة «المورس» التي انتشرت بين المعتقلين وساعدتهم في تحديد أوقات الصلاة.

جثم عوّاد البندر فوق كرسيّه الفخم، فبدا كنسر يجثم فوق غصن

ميت في مساء خريفي حزين.. جثم عواد البندر فوق نفوس عشرات من شباب العراق الأحرار الذين نهضوا لمقارعة نظام البعث الأموي الدموي..

عواطف نوري الحمداني كانت واقفة وهي تحتضن طفلتها دعاء الملفوفة بقماط أبيض، فبدت حمامة بيضاء تغفو بسلام؛ إنها «دعاء» الطفلة التي قدر لها أن تلد في معتقلات نظام البعث الهمجي، وأن تقاسي صنوف التعذيب وهي ما تزال جنيناً في ظلمات ثلاث إضافة إلى ظلمات زنزانات البعث القاسية.. «دعاء» التي اجتازت شهرها الثالث لا تعي ما يجري حولها من أهوال.. «دعاء» لم تسمع «اللواء» مجرم الجبوري وهو يقول بلهجة تنضح حقداً وهو يخاطب أبويها:

- قد نحتاج إلى مشنقة صغيرة لهذه الطفلة لأنّها رضعت حليبكم الحاقد.

ما تزال أصداء تلك الكلمات المسمومة تتردّد في وجدانها وهي تقف أمام قاضي المحكمة العسكريّة والسفاك عوّاد البندر الذي لم يتردّد في إمضاء حكم سلفه!!

عواطف لم تطلب المرحمة ولن تطلبها أبداً! هذه الفتاة تنطوي على نفس أبيه.. في أعماقها تتقد شعلة من ثورة عظيمة فيها وهج قادم من عاشوراء.. كانت تزدري محكمة البعث.. تزدري رئيس المحكمة والادعاء، وتنظر باستخفاف إلى المحامي الذي وكلته المحكمة.. خاصّة عندما يطالب بعقوبة الإعدام ضد «موكّليه».

زوجها ورفيق دربها المرير كان يتحاشى النظر إليها.. كان يشعر

بالخجل.. لم يتحمّل جولات التعذيب الوحشي..

«علي ناصر شاوي» الشاب القادم من مدينة «الحي» من محافظة واسط من مواليد ١٩٥٩.. الداعية المتحمس للجهاد من أجل تحرير الوطن من تسلّط عصابة البعث اللاإنسانية؛ آمن بالعمل المسلّح، وقاد الخط العسكري في فترة عصيبة من المواجهة الضارية ضد نظام مدجج بأسلحة الدمار والبطش ووسائل التعذيب!

كان علي ناصر يشعر بأنّه مدين لزوجته باعتذار كبير.. في المرافعة الأولى فاجأته عواطف تخاطبه:

- أبو دعاء!

بدل أن يشعر بالفرحة اجتاحته موجة من الحزن، وشعر بحالة من الخزي، فأطرق برأسه خجلاً من زوجته الشابّة كيف صمدت في جولات التعذيب وهي حامل ثمّ أنجبت طفلتها في ظروف قاسية لا تطاق؟!.. كيف استطاعت فتاة في رقتها أن تصمد بينما ينهار الرجال؟! أجل كيف؟!

خاصّة عندما مرّ من أمام إحدى المعتقلات التي ثارت في وجهه:

- ها جبان! اعترفت؟!

اعترف في قرارة نفسه بأنّه قد ارتكب خطأً فادحاً في مسلسل اعترافه؛ وقد كان عليه أن يصمد في جولات التعذيب.. و أنه كان عليه أن يكون في مستوى مسؤوليّته في قيادة الخط العسكري..

كان يرى نظرات العتاب في عيون الكثيرين.. وحزّ في نفسه كثيراً أنّه

انهار في جولات التعذيب واعترف على الكثيرين!!

آلمه أن ينتهي كل هذا الجهاد وكل هذه الجهود إلى لا شيء.. سمع من أحد إخوته أن قرار المواجهة العسكريّة وخوض تجربة الصراع المسلّح ضد نظام صدام المجرم كان خطأً جسيماً.. إلا أنه كان يبرر لنفسه أن خوض هذه المعركة غير المتكافئة هي قدر الهي.. إن على جميع المجاهدين أن يدركوا أن المواجهة المسلّحة أمر لا مفرّ منه، و أن الإنسان المؤمن أمام خيارين إمّا أن يتنازل عن كرامته ويركع للطغاة، وإمّا أن يخوض معركة الكرامة.. ولم يكن هناك من خيار سوى خوض المعركة في طريق الحسين.

أمل

لك أن تتصوّر فتاة قمحيّة الوجه.. ولدت مع ميلاد مدينة الفقراء المعدمين.. مدينة النازحين من جنوب العراق.. من الناصريّة والعمارة والبصرة.. مدينة الثورة.. ولدت أمل عبّاس شوكت الربيعي في ١٩٦٠م في مدينة الثورة «ثورة» عبد الكريم قاسم..

انتقلت الأسرة إلى منطقة الكرادة.. بالقرب من شواطئ دجلة.. وفي تلك الفترة العصيبة من تاريخ الوطن المقهور تعرّفت على شاب هو صباح علي طابو المالكي، وكان يدرس في كلية الهندسة..

داهمت ذئاب البعث بيتها، وقاموا باعتقالها مع أختها سندس.. بعد اعتقال عواطف نوري محمّد الحمداني بثلاثة أشهر.. اقتيدت إلى مديريّة أمن الثورة في شارع فلسطين وكان هذا المكان في الأصل بيتاً تعيش فيه أسرة الشاب الطالب الجامعي سمير نور علي الذي حاول

اغتيال الماسوني طارق عزيز في الجامعة المستنصريّة، ثمّ اعتقال أفراد الأسرة، وبعد مدّة تم ترحيلهم إلى إيران..

واستحال ذلك البيت الذي كان يزخر بضحكات الأطفال إلى جحيم تتردّد بين جدرانه صرخات المعذبين.. في هذا المكان تعرّضت أمل الربيعي للتعذيب مع أختها سندس..

علّقت في السقف والصعقات الكهربائيّة.. في هذا المكان الموحش غيّر الجلادون مواقع حروف اسمها وأصبح الاسم «ألم»، وبعد ستّة شهور نقلت إلى «موقف» مديريّة الأمن العامّة لتلتقي صديقتها ورفيقة الدرب عواطف.. وقد تحدّثت «السماء تفتح أبوابها في السماء» عن آلام فاطمة وعن ملحمة العذاب التي تعرّضت له الفتيات على يد الوحش «الخاقاني» الذي شارك في تعذيب الشيخ عارف البصري ورفاقه «قبضة الهدى» عام ١٩٧٤م.. كان يومها برتبة «مفوض»، فحصل على ترقية بسبب وحشيته المفرطة ليصبح برتبة ملازم، وفي عام ١٩٨٠ أصبح برتبة «رائد»..

في هذا المكان تعرّضت فاطمة الحسيني لتعذيب همجي على يد وحش «أمن الثورة»، كما اعتقل خطيبها صباح علي طابو، وانقطعت أخباره واختفت آثاره!!

أجل؛ بعد ستّة شهور من العذاب في مديريّة أمن الثورة.. اقتيدت أمل إلى «موقف» الأمن العامّة.. وهناك التقت صديقتها عواطف وباقة من صديقاتها وبنات جيلها.. جيل المحنة والطريق المرير..

اقتيدت إلى محكمة الثورة العسكريّة التي أصدرت حكماً بالإعدام

شـنقاً حتّـى المـوت!!

٣٠ أيلول ١٩٨٢م

بعـد مضـي خمسـين يومـاً مـن المرافعـة الأولـى فـي العاشـر مـن آب ١٩٨٢، وصـدور قـرار الحكـم بالإعـدام شـنقاً حتّـى المـوت، وتأجيـل تنفيـذ الحكـم إلـى جلسـة أخـرى.. اقتيـدت عواطـف مـرّة أخـرى فـي الثالـث مـن أيلـول وقـد تشـكلت المحكمـة برئاسـة اللـواء عـوّاد البنـدر.. الـذي راح يقـرأ وقائـع الجلسـة الأولـى وقـرار سـلفه مجـرم الجبـوري!!

التقـت عواطـف زوجهـا مـرّة أخـرى.. التقـت العيـون.. وقـد تعطلـت لغـة الـكلام..

طلـب علـي ناصـر رؤيـة ابنتـه، وقـد تألّمـت عواطـف لموقفـه ومخاطبـة القاضـي قائـلاً: سـيدي!

كان ينظـر إلـى القاضـي متوسّـلاً! هـز البنـدر رأسـه موافقـاً ومنحـه فرصـة ثـوانٍ معـدودة..

بـادرت عواطـف إلـى تسـليم دعـاء لأبيهـا.. وأشـارت إلـى القمـاط بنظـرة ذات معنـى..

أخـذ علـي ابنتـه وراح يقبّلهـا ويلثمهـا وقـد أثـر مشـهد «اللقـاء الـوداع» علـى أجـواء المحكمـة العسـكريّة؛ قالـت عواطـف:

- صدقنـي علـي! أيـام و ليـالٍ وهـي فـي أحضانـي.. كنـت أتحاشـى النظـر إليهـا حتّـى لا أتعلّـق بهـا!

امتلأت عيناه بالدموع وقد غمرته مشاعر الشوق والحب؛ كان على حافة الانهيار.. همست في أذنيه وقالت:

- علي! أرجوك لا تضعف.. لا تخاطب القاضي.. لا يستحق كلمة «سيدي»!! لا تطلب المرحمة.. قضيتنا منتهية أكيد إعدام.. وإن شاء الله نُحسب عند الله شهداء!

كانت لحظات الوداع مؤلمة.. نظر إلى زوجته وقد غمرته مشاعر هي مزيج بين الخجل والاعتذار، مدّ علي يده تحت القماط..

كانت عواطف قد دسّت عشرة دنانير و مصحفا صغيرا في طيّات القماط، دسّ علي المصحف والدنانير في جيبه، فهذا المبلغ لدى المعتقل يعدّ ثروة كبيرة..

كان علي ناصر طيلة مدّة الاعتقال قد تعرّف على الكثيرين، وسبر كنه العديد من الشخصيّات.. تعرّف على نفسياتهم وطبيعة مشاعرهم ونسبة الإنسانية في نفوسهم.. ومن بين من تعرّف عليهم مأمور اسمه طارق ومأمور آخر اسمه طارق أيضاً.. وقد أثبتا له أن الطائفة التي يشكل المذهب هويتها قد تحولت وبمرور الزمن إلى نسيج قومي لا يمت إلى العقيدة والفكر بصلة؛ لذلك فقد كان طارق السنّي يتعاطف ولأسباب إنسانية وأخلاقيّة مع علي ناصر في حين كان طارق الشيعي حقوداً وقاسياً جداً مع المعتقلين من أبناء طائفته!!

طارق السني عندما سمع قرار الحكم بالإعدام بشأن علي ناصر تألّم بشدّة وقال بحزن:

- حرامات يموت مثل هذا البطل!

علـي ناصـر أعطـى العشـرة دنانيـر إلـى طـارق السـنّي لشـراء مـا يلـزم المعتقلين مـن ملـح وأشـياء أخـرى وثـلاث قطـع مـن الكبـاب.. وقـد قـام علـي ناصـر بتقسـيم الكبـاب إلـى ثـلاث وثلاثيـن قطعـة صغيـرة وزعهـا علـى الثلاثـة والثلاثيـن معتقـلا فـي الزنزانـة رقـم «٣».

نقلـت عواطـف وبقيّـة الفتيـات المحكومـات مـن مبنـى محكمـة الثـورة العسـكريّة إلـى سـجن الرشـاد فـي شـرق بغـداد!

مـا تـزال دعـاء أصغـر معتقـل فـي عـراق البعـث الهمجـي.. دعـاء مـا تـزال تبتسـم ببـراءة وهـي تقتـرب مـن شـهرها الرابـع.. مـا تـزال تبتسـم للحيـاة.. رغـم بكائهـا فـي مبنـى المحكمـة، وامتـزاج صـوت بكائهـا الطفولـي مـع صـوت فـظ خشـن وعنيـف يتحـدّث عـن صـدور قـرار الحكـم بالإعـدام شـنقاً حتّـى المـوت علـى أبويهـا الشـابين!! الأم فـي الحاديـة والعشـرين مـن ربيـع العمـر والأب فـي الثالثـة والعشـرين..

عصابـة مجرمـة تسـطو علـى العـراق العريـق وتتحكّـم بمصيـر شـعبه.. لـم تطلـب عواطـف المرحمـة مـن المحكمـة، وطلبـت مـن زوجهـا ألا يخاطـب القاضـي بالسـيّد.. منـذ المرافعـة الأولـى فـي العاشـر مـن آب وهـي تتـوق إلـى الشـهادة أجـل إنهـا تسـتعد للرحيـل..

السيّارة الصندوق تنقل المعتقلات إلى سجن الرشاد في شرق بغداد!

عواطـف تفكـر فـي مسـتقبل ابنتهـا هـل تسـلمها إلـى ذويهـا أو ذوي زوجهـا! اتّخـذت قرارهـا بتسـليم «دعـاء» طفلتهـا البريئـة إلـى مـن يتكفّلهـا وينشـئها نشـأة صالحـة لتكـون زوجـة صالحـة وأمـاً صالحـة!

لـم تنـم عواطـف تلـك الليلـة كانـت تفكّـر فـي ابنتهـا.. تريـد لهـا أن تنشـأ

في أجواء عائليّة عادية بعيداً عن جحيم سجون ومعتقلات البعث، وفي فجر اليوم التالي كان قد استقر رأيها أن تسلم دعاء إلى والدتها فكتبت رسالتها الأولى ووصيّتها الأخيرة:

- «أمي الحبيبة..

تحيّة لك من صميم قلبي الملهوف لوجهك الكريم.. يعلم الله كم أنا مشتاقة لكم، وأسأل الباري أن يرعاكم ويحفكم برعايته..

أمي العزيزة..

لقد تبيّن من المحكمة أن مصيري هو الإعدام و إني ولدت طفلة سمّيتها دعاء، فبعد أن عرفت مصيري انشغلت كثيراً وأخذت أتساءل إلى من أسلّم هذه الطفلة؟ فأوّل ما طرق ذهني هي أحضانك يا حبيبتي يا أمّي وقلبك الطيّب ونعم القلب وخير المربيّة، فأرجو أن تحتضنيها، وليس فقط في الملبس أو المأكل وإنّما بحسن الأخلاق والتربية الصالحة، وأسأل الله أن يسهل تربيتها، ويجعلها وكأنما هي عواطف التي ربيتها، وأن تصبح زوجة صالحة في المستقبل.. فهي يا والدتي ذمّة في عنقك، وإن شاء الله تطمئن عيني وتستقر حين ودعتها عند خير حبيبة.. سلامي إلى أبي وصباح وزينب وأثير.

عواطف

٨٢/٨/٢١

كانت عواطف قد سطرت رسالة إلى أسرة زوجها في احتضان دعاء الطفلة الرضيعة.. كما كتبت رسالة إلى خالتها في هذا الموضوع، وختمتها بهذه الملاحظة:

- ملاحظة

خالتي العزيزة:

تبقى الطفلة لديك، فأنت يا خالتي أعزّ الكل و أرأفهم، فإن ساءت الظروف فابعثيها إلى عيالي (أسرة زوجها)، وإن ساءت ورفضوا فالمحاولة الأخيرة هي أمي واشطبي هذه الكتابة (ملاحظة) حين تبعثي هذه الورقة لأمي

عواطف

٨٢/٨/٢١

كان هاجس عواطف هو تسليم طفلتها والتفرغ للعبادة والاستعداد للرحيل نحو الأبديّة.. و كانت صديقتها نهلة هادي التي حكم عليها بالسجن سبع سنين قد أبدت استعدادها لاحتضان دعاء؛ أي تسليم الطفلة إلى أسرتها في أوّل مواجهة، وبعد أن تنتهي محكوميتها تقوم هي بتنشئتها.. وكانت المفاجأة هي ترحيل الأسرة وتسفيرها إلى إيران بذريعة التبعيّة!

«نفيت واستوطن الأغراب في وطني

ودمّروا كلّ أشيائي الحبيبات»

بقايا السلاجقة المحتلّين من أبناء طغرل بيگ يجثمون على صدر العراق الحبيب، ويطردون أبناء العراق الأصلاء.. يقتلون رجاله الشرفاء!! ويحكّمون الأدعياء أبناء الأدعياء!!

بالأمس البعيد سبط آخر الأنبياء في التاريخ أطلقها آهة حرّى.

- من هوان الدنيا أن يهدى رأس يحيى بن زكريّا إلى بغي من بغايا بني إسرائيل!!

وبالأمس القريب يقوم صدّام ابن صبحة - الذي كان يعمل في صباه «سكن» عند السائق «كريم لعّابة» - باستدعاء آية الله العظمى محمّد باقر الصدر مخفوراً، فيقوم بتعذيبه في القصر الجمهوري ببغداد، وإحراق شيبته، وتعذيب شقيقته أمامه، و إطلاق الرصاص على رأسه! وصدره!!

بالأمس البعيد وفي يوم عاشوراء سنة ٦٨٠م جثم الشمر على صدر الحسين، وقبض على شيبته المقدّسة، واحتزّ رأسه المقدّس غير أنه لا يزيد ولا الشمر همّ بقتل شقيقته الحوراء زينب!!

أما ابن صبحة النغل فقد قام بقتل المفكّرة الأديبة عذراء العراق وإخفاء قبرها.. وذلك بعد تعذيب همجي!!

وبعد وقوع هذه الجريمة استبيح العراق من أقصاه إلى أقصاه! فلم يعد هناك مقدّس وغير مقدّس، ومعقول وغير معقول.. كلّ الحرمات مستباحة أمام الغازي صدّام!!

في هذه الظروف العصيبة نهض آلاف الشباب والفتيات لمواجهة أعتى النظم الدكتاتوريّة في تاريخ البشريّة.. نظام همجي ساقط أخلاقيّاً.. نظام يحكّم الساقطين المنحطّين ويقصي الشرفاء.. نظام يشجع على الرذيلة ويحارب كلّ أشكال الفضيلة!!

نظام يشرّد الشعراء ويرعى المهرّجين!!

سجن الرشاد

وصلت عواطف مع غيرها من المعتقلات لأسباب سياسيّة إلى سجن الرشاد الذي فتح بوابته الكبيرة التي تبقى مغلقة معظم الأوقات.. فبدا بجدرانه الشاهقة التي تعلوها الأسلاك الشائكة عالماً آخر.. يشتمل السجن على أربعة أقسام وقد خصّص القسم الثالث للقضايا السياسيّة..

والسجن عبارة عن مستطيل غير متساوي الأضلاع، ويتألّف من ثلاثة قواطع، حيث يشتمل القاطع الأيمن على أربع زنزانات مساحة الزنزانة ٣/٥ × ٢/٥م٢، فيما يشتمل القاطع الأيسر على ثلاث زنزانات، أمّا القاطع المقابل للبوابّة الرئيسيّة فيشتمل على أربع زنزانات، وتنفتح أبواب القواطع جميعاً على ساحة تسمى «الشبكة».

السجن تديره امرأة دميمة الوجه بذيئة اللسان تدعى «رافدة الجبوري».

وداعاً دعاء

غداً ستأتي عائلة عمها لـ «مواجهة» ابنتهم آمال؛ هذا ما قالته الرقيبة سميرة (بنت أبو نعمان) وهي من أهالي الكرادة.. كانت سميرة تتعاطف مع المعتقلات في القسم الثالث الخاص بالقضايا السياسيّة.. لها أخوان يعملان في سجن «أبو غريب» الرهيب!

تمّ إطلاع والدة عواطف على موضوع دعاء، وتقرّر قدومها في يوم الأحد وهو اليوم المخصّص لـ «المواجهة»، لم يسمح للأم أن تلتقي ابنتها لأنّ عواطف لا تشملها «المواجهة».. وهكذا تمّ الاتّفاق..

كانت ليلة طويلة.. لم تغمض عواطف عينيها كانت تذرف الدموع بصمت.. تلثم ثغرها الباسم وكفيها الصغيرتين وتشمها وتضمها.. إلى أن ثقل جفناها، واستغرقت في خدر النوم حتّى مطلع الفجر.. اقتربت لحظات الوداع.. كانت عواطف تحتضن دعاء بحزن، تضمّها بشوق إلى صدرها.. ترضعها للمرّة الأخيرة.

كان المشهد غارقاً في الحزن.. وقفت الرقيبة سميرة تنظر إلى عواطف بأسى.. وبدت الطفلة كما لو أنّها تدرك اقتراب لحظة الوداع.. فهي تتشبث بأمّها.. وتبكي بصوت يحرق قلوب الأُمّهات.. لم تجرؤ الرقيبة على أخذ الطفلة من الأحضان الدافئة!!

كان المشهد مأساويّاً.. كلّ اللائي حضرن مشهد الوداع الحزين تأثرن وتجمعت الدموع في العيون.. وهنا انبرت أُخت لحسم لحظات الوداع الأخيرة، قالت بلهجة مترعة بالأسى وهي تستمد العون من ملحمة كربلاء وسيّد الشهداء:

- ساعد الله قلبك أبا الأحرار.. وأنت تودّع طفلك الرضيع ذبيحاً ظامئاً عطشاناً!

ساعد الله قلبك يا مولاتي «الرباب» وأنت تودّعين رضيعك عطشاناً..

هنالك دوّت في أعماق الأم الشابة كلمات الميثاق في نشيد الملايين: «يا حسين بضمايرنا.. صحنا بيك آمنا.. لا صيحة عواطف هاي.. لا دعوى ومجرّد راي.. هذي من مبادئنا.. صحنا بيك آمنا..

هنالك تراخت يداها فاحتضنت الرقيبة الطفلة الرضيعة لتنقلها من حضن عواطف الأم إلى حضن أم عواطف.. همست عواطف في أذن

دعـاء:

- دعـاء! حبيبتـي.. اسـتودعك الله الـذي لا تضيـع ودائعـه.. كانـت عواطـف تراقـب طفلتهـا وهـي تغـادر السـجن إلـى أن اختفـت وراء البـاب الكبيـر!

وهكذا قُدّر لـ «عواطف» أن تنطلق مرّة أخرى من خلال ابنتها الوحيدة إلى الحياة لتخوض مرحلة جديدة من الصراع ضد أعداء الحياة الحرّة الكريمة، ستكون دعاء رمزاً لخلود الشهداء واندثار البعثيين الجبناء!!

تقدّمت أمل إلى صديقتها واحتضنتها وقالت بعينين نديتين:

- كان بإمكانك الاحتفاظ بها.

قالت عواطف وهي تبكي:

- لا أريد التعلّق بها.. أريد أن استثمر ما تبقى من وقتي القصير في الصلاة والدعاء وقراءة القرآن..

سكتت لحظات لتكفكف دموعها وتقول:

- أريد أن أطمئن على مستقبلها قبل الرحيل!

قبل أن يأخذوني إلى «أبو غريب».

حلّة الرحيل

انصرفت فاطمة إلى تطريز حلّة الرحيل.. عجيب أمر هذه الفتاة!! تنظر إلى ساعة تنفيذ الأحكام كما لو أنّها موعد الرحيل إلى عالم مفعم

بالسلام!!

لذلك راحت تمضي وقتها في الكتابة على الكفن.. كانت تخط بعض سور القرآن الكريم ودعاء الجوشن..

لم تمنحها الأقدار فرصة ارتداء حلّة الزفاف البيضاء.. وها هي الآن مستغرقة في تسطير الكلمات المقدّسة فوق حلّة الرحيل البيضاء..

وفي الأسحار تنهض عواطف لأداء صلاة الليل حتّى مطلع الفجر، فتؤدّي الفريضة وتستغرق بعدها في تلاوة آيات القرآن الحكيم..

قدوم فاطمة

في عصر يوم خريفي من بدايات أيّام كانون الأوّل ١٩٨٢ وصلت فاطمة علي طالب الحسيني.. في ضحى ذلك اليوم حكمت محكمة الثورة العسكريّة برئاسة اللواء المجرم مسلم الجبوري على فاطمة بالإعدام شنقاً حتّى الموت وفق المادة ١٥٦ الفقرة (أ) من قانون العقوبات المؤقت، وكانت فاطمة قد تعرّضت إلى تعذيب همجي على يد الجلّاد «علي الخاقاني» (أبو جواد) وذلك في مبنى مديريّة أمن الثورة في شارع فلسطين.. وكان المبنى في الأصل داراً تسكنها أسرة الشهيد سمير نور علي الطالب الجامعي الذي لقي مصرعه أثناء محاولة جريئة لاغتيال «طارق عزيز» رجل الماسونيّة في عراق البعث.. فوجئت فاطمة بأعداد المعتقلات من الخطوط التي كانت تقودها، وصدمت بخبر إعدام صديقتها ورفيقة الدرب «كميلة شرقي».. في عينيها سؤال كبير: ما الذي جرى؟!!

وجاءها الجواب من أمل عبّاس الربيعي:

- اعترافات شيخ راضي..

قالت عواطف التي كانت تنظر إلى فاطمة بحزن:

- تعرّضنا للاعتقال جميعاً في يوم واحد أو يومين!!

كان وقع الصدمة على قلبها المثقل بالمرارة شديداً، غمغمت بأسى:

- مستحيل!!

كم تعذّبت من أجله؟!

كم تعذّبت من أجلكم؟!

لاذت بصمت عميق

تألمت عواطف لمشهد آثار التعذيب بالكَي وحروق التيزاب.

يبدو أن «الخاقاني» و«الهلالي» يتسابقان للفوز بلقب «الوحش البشري»!!

جثم الظلام على سجن الرشاد كما يجثم الغراب فوق غصن ميّت..

روت عواطف مسلسل الاعتقال الذي طال العشرات في خطوط التنظيم في مدينة بغداد «الثورة.. الكاظميّة.. الشعلة.. بغداد الجديدة!!

وكانت معظم أسرار العمل التنظيمي تنتهي إلى «شيخ راضي» بشكل مباشر.. وقد كانت فاطمة تعلّق عليه آمالاً كبيرة!!

لم يسلم من الاعتقال إلّا الذين قرّروا الهجرة إلى خارج الوطن!!

بعد أن أخفقوا في محاولات إقفال خطوط التنظيم.. كانت اعترافات «الشيخ» كارثيّة!! أدّت إلى استئصال أغلب مواقع العمل التنظيمي العسكري وتمزيق خيوطه وهدم خطوطه!!

كانت فاطمة تصغي إلى فصول المأساة، وكانت تغمغم بكلمة واحدة.. «مستحيل» مستحيل.. مستحيل.. ورأت «عليّة قاسم» أن تشدو بنشيد الدعاة الخالد:

- باقر الصدر منا سلاما

أي باغٍ سقاك الحماما؟!

وانضمّت إليها إيمان البصري وسميرة فاضل الحياوي وكاظميّة و..

- أنت أيقظتنا كيف تغفو؟

أنت أقسمت أن لن تناما!

كيف تنأى بعيداً ولما

يبلغ المؤمنون المراما

غبت عنا سريعاً ولمّا

يطرد الثائرون الظلاما

قد فقدناك زعيماً لا يجارى

فبكيناك دماً دمعاً سجاما!

وخارج أسوار السجن كانت السماء تمطر على هون، فكأنها تشارك المقهورين في حزنهم الكربلائي:

- يا شهيداً.. قام فرداً..

ينتضي للطغاة حساما!

أنت كالسبط حسين..

قد أبيت الحياة مضاما

يا أبا جعفر سوف تبقى..

رائداً للورى وإماما

كذب البعث ما زلت فينا

كالخميني تهدي الأناما

وعلى بعد مئات الأميال هناك في طهران عاصمة الثورة الإسلاميّة كان الدكتور داود العطّار راقداً في فراش المرض.. ذلك الرجل الثائر الذي هزّه نبأ استشهاد السيّد محمّد باقر الصدر ومصرعه على يد الطاغية في القصر الجمهوري ببغداد.. فدوّت كلمات هذا النشيد الخالد في أعماقه.. وسرعان ما عبر هذا النشيد الحدود.. وأسوار السجون ليصبح نشيداً لكلّ المقهورين في أرض الرافدين.. أرض علي والحسين.. أجل كان داود العطار يقترب من النهاية وقد أزفت ساعة الرحيل قبل حلول الذكرى الثالثة لاستشهاد مفجّر الثورة الإسلامية في العراق وحسين العصر السيّد محمّد باقر الصدر!!

سيرحل بعد أسابيع معدودة قبل أن تتحقّق نبوءته في سقوط طغاة البعث المجرمين!

وفي تلك الليلة أغمضت عواطف عينيها على صورة طفلتها وهي تبتسم بأمل..

سألت الجرح أن يمتدّ في عمري

ويحمل وجهي الآتي

ويمسح همّي المحفور

في الأعماق من ذاتي

فيا وجعاً تسمّر فوق نافذتي وأبوابي

ويا حزناً فراتياً يكوّر ليلي الشاتي

ترفّق؛ ليس في عينيّ..

غير ضبابة علقت بأهدابي..

ترفق؛ ليس في الأضلاع

غير فؤادي الكابي

وغير الملح

يغمر دمعي الخابي

وصورة طفلة..

بين الأسى والحبّ..

تحمل وجهي الآتي..

وتبني من مآسيها وآهاتي

مآذن للدماء.. وألف محراب..

عواطف وأمل

عواطف تمضي ساعات العمر الأخيرة في الصلاة والدعاء، وكانت أيضاً تطالع بعض الكتب التي تهرّب إلى داخل السجن بطرق غامضة.. كانت تطالع في كتاب الميزان في تفسير القرآن، وكتاب «خطوات على طريق الإسلام»، وأحياناً تتحرش بالرقيبات وخاصّة «أم سفيان» تذكّرها بسوء العاقبة.. والمصير الأسود الذي ينتظر الظالمين..

قالت لها مرّة:

- شلون راح تقابلين ربّك يوم القيامة؟

- هذي وظيفتي.

- يا وظيفه هذي.. اتركي الوظيفة؟

- وأنت! ليش ما تركين السياسة؟!

عواطف ترمقها بنظرة ساخرة وتشيح بوجهها.

وكانت علاقتها مع أخواتها في المحنة في غاية اللطف والمحبّة.. تنظر إلى يوم تنفيذ الإعدام كيوم للخلاص ونافذة مشرعة على الحريّة

والرحيل إلى عالم أخضر مفعم بالصفاء والسلام..

كانت علاقتها مع أمل الربيعي غاية في المحبّة.. ذات يوم وقد كانت فاطمة الحسيني مستغرقة في تلاوة القرآن الكريم.. دار حديث حول الإعدام شنقاً حتّى الموت.. هنا ابتسمت أمل ورمقت عواطف بنظرات ذات معنى وقالت:

- عواطف.. الجماعة بـ«أبو غريب» يحتاج لهم حبلين حتّى يتمكّنوا من شنقچ!!

فردّت عواطف ضاحكة:

- وأنت يراد لچ حبل من مسد!!

أمل تستنكر وقد أشرقت الابتسامة في وجهها القمحي:

- لا بالعكس.. آني خيط يكفي.. لكن أنت ما شاء الله!!

عواطف تملأ قدحاً بالماء لترشه على أمل.. أمل تهرب تلوذ بـ«فاطمة».. عواطف تنسحب احتراماً لـ «فاطمة».

الرسالة الأخيرة

وتمرّ الأيّام والليالي وتذوب الأجساد وتسطع الأرواح.. في يوم الخميس السادس عشر من أيلول ١٩٨٢ تسطر عواطف رسالتها الأخيرة:

بسم الله الرحمن الرحيم

السلام عليكم ورحمة الله و بركاته

أبعث إليكم سلامي مفعماً بالشوق، إليكم أيّها الأحبّة الأعزّاء يا والدتي الحبيبة أسعدني كثيراً رؤية «دعاء» في المواجهة السابقة وقد اطمأننت اطمئناناً كاملاً عليها بعد أن عرفت أنها برعايتكم الحبيبة.. وخاصّة بعد أن رأيتها قد كبرت بالرغم من الفترة القليلة التي تركتها فيها، أريد أن أسأل عن صحّة والدي وكيف هو الآن.. وأرجو أن تملأ فراغي «دعاء» معكما. يا والدتي لا تجهدي نفسك عناء الطريق.. فقد كنت كل ما أتمناه هو معرفة أخباركم والحمد لله قد اطمأننت عليكم..

أختي العزيزة «زينوبة» كما كنت أدلّعك دائماً أسعدتني الرسالة كثيراً وأرجو أن تكوني بصحّة جيدة ومرتاحة.

أخي العزيز صباح: أرجو أن تكون الرسالة التي بعثتها إليكم قد وصلت، وأرجو أن تبرئ لي الذمّة.. سؤالي عن صحّتك وأرجو أن تكون مرتاحاً في وظيفتك.

أخي الصغير أثير: سلامي الحار إليك وأرجو أن تكون من الناجحين بتفوق في دراستك.

«زينوبة وأثوري» أتدريان يا إخواني الأعزّاء أن أكثر الكلمات التي ترددونها هي علي بالي وأرددها أحياناً مع صديقاتي..

هذا والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الخميس ١٩٨٢/٩/١٦

قد تكون هذه آخر رسالة لي معكم وبالرغم من أنني واثقة من أنكم تبرؤون لي الذمّة، ولكنّي أكرّرها معكم لكي يطمئنّ ضميري و ألقى الله

وأنتم راضين عنّي.

ابنتكم عواطف

كانت خيالات الماضي تتراءى لها وهي تخاطب أختها الصغيرة زينب أو كما تحب أن تسميها «زينوبة» وأثير أو «أثوري»:

«يا إخوتي هل تذكرون؟

أيام كنّا نقلع الأشواك..

ونزرع الورود

فيشرب الهواء من عطورنا..

وتشرق النفوس!

يا إخوتي هل تذكرون

أحبّة الطريق..

الزارعين الحب في النفوس

البائعين العطر والرحيق..

المنقذين كل حائر غريق..

كم طيبون هم وواعدون..

دونما حدود..

رسالة أمل

فـي تلـك الليلـة الخريفيّـة كانـت «أمـل» مسـتغرقة فـي كتابـة رسـالتها الأخيـرة إلـى شـقيقها.

بسم الله الرحمن الرحيم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

إلـى أخـي العزيـز لقـد وصلتنـي رسـالتك وإنـي لشـاكرة مشـاعرك.. أخـي إنـي كنـت أتمنـى أن أراك، ولقـد طلبـت ذلـك عندمـا علمـت بمصيـري، ولكنّهـم لـم يحقّقـوا لـي ذاك، ولكنّـي أحمـد الله وأشـكره لعـل فـي ذلـك مغفـرة لذنوبـي.. أخـي يـا مـن أرفـع رأسـي شـامخاً بـك أدامـك الله لوالـدي خفـف عنهـم مصابهـم حيـث إنـك تعلـم مـاذا نعنـي نحـن لهـم حيـث إن الأقـدار شـاءت أن تبعدنـي عنهـم.. مـا أطلبـه منـك هـو يـا أخـي اعمـل بالآيـة الكريمـة «فـلا تقـل لهمـا أفّ ولا تنهرهمـا وقـل لهمـا قـولاً كريمـاً».

أخـي أوصيـك بوالـدي أكـد عليـه الصـلاة ثـمّ الصـلاة؛ لأنّـك تعلـم أنـه يسـتحق الجنّـة، وتعلـم أن الصـلاة إن قبلـت قبـل مـا سـواها.

أوصيـك أخـي بإخوتـي جميعهـم.. أخـي اتعـب عليهـم وسـيّرهم فـي الطريـق الصحيـح.

أوصيـك بوالدتنـا وقـرّة أعيننـا أن ترعاهـا، وتخفـف عنهـا لأنـك تعلـم كـم تعزّنـي وقـد ينـال منهـا الألـم منالـه.. خبرهـا أننـي سـأنتظرهما عنـد ربّ رحيـم ولابـدّ أن نلتقـي.. و أوصهمـا بالصبـر.. أخـي وقـرّة عينـي يـا مـن تقاسـمنا الحيـاة عسـرها ويسـرها أطلـب منـك أن تبرئنـي الذمّـة، قـد أكـون فـي يـوم

مـا أزعجتـك أو سـمعت منّـي كلمـة أغضبتـك أدامـك الله للإسـلام ذخـراً.. ولوالـدي ابنـاً بـارّاً.

أختك أمل عبّاس شوكت

عواطف وآمال

ثمّة آمال تتألّق في النفوس.. فاطمة ما تزال واثقة من وجود زوجها جمال.. ربما يكون قد هاجر إلى الأرض التي تشرق منها الشمس!

وهكذا الأمر بالنسبة إلى أمل فهي تتصور أنّ خطيبها «صباح» الذي تربطه علاقة وطيدة مع «جمال» ما يزال حرّاً في مكان ما ولعلّه قرّر الهجرة أيضاً..

عواطف وحدها اعتقل الذئاب زوجها وحبيبها ووالد طفلتها الوحيدة.. فاطمة تتمنى لزوجها جمال السعادة أينما كان، وأمل تتمنى أن ينساها صباح ويعيش حياته وينسى ذكرياته! لم تكن تعلم باعتقاله.. فاطمة هي الأخرى لا تعلم باعتقال زوجها وقد مضى على زواجها بضعة أسابيع.. لقد اختفى وانقطعت أخباره!! لم تعلم باعتقال شقيقيه نبيل وهاشم..

في تلك الليلة الخريفيّة

نشر الليل الخريفي ستائره.. فاطمة قائمة تصلّي تهمس بالكلمات المقدّسة همساً.. وكانت النجوم تومض في أغوارها السحيقة، وكانت عواطف قد أوت إلى النوم.. أغمضت عينيها النجلاوين غير أن قلبها ما يزال متيقظاً يتدفق في حناياه نبع سماوي، فقد اعتادت أن تتلو بصمت آية الكرسي.. «الله لا إله إلّا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم..»

وشيئاً فشيئاً راحت تنزلق في خدر النوم.. ولجت عواطف عالم الرؤى والأحلام؛ حيث تنطلق الأرواح في عوالم بعيدة..

كانت عواطف تمشي برفقه علي ومعهما فاطمة وأمل.. الطريق المعشوشب يخترق مروجاً مليئة بالزهور.. زهور من مختلف الألوان.. والمشهد يتألق في غمرة أنوار شفافة.. من بعيد لاح شابان عرفتهما على الفور جمال وصباح، كانا يلوّحان وقد أشرقت الفرحة على و وجهيهما.. بادر علي إلى لقائهما، فحث الخطى نحوهما.. فاطمة تسرع نحوهما.. بقيت أمل وعواطف تنظران..

عواطف تستيقظ من النوم على يد فاطمة..

كان صوت أذان يأتي من بعيد..

ما تزال عواطف تحت تأثير الرؤيا.. لم تجد في نفسها رغبة في أن تحدّث فاطمة وأمل بأمر الرؤيا..

في داخلها كانت تبشر نفسها بالشهادة.. وتمرّ الأيّام والليالي..

***

٢٧ كانون الأوّل ١٩٨٢

مضى على عودة عواطف وأمل من سجن «أبو غريب» ثلاث ليال!.. ما يزال المكان يعبق بأريج «فاطمة»، شاء القدر أن تلحق بزوجها وحبيبها جمال.. اقترحت إحدى الفتيات عقد مؤتمر صحفي لكلّ من أمل وعواطف للتعرف على تفاصيل التجربة المثيرة!

لا أحد يعرف أبدا السرّ في تنفيذ حكم الإعدام بشأن فاطمة.. وتأجيل هذا الحكم بشأن عواطف وأمل!!

طرح أوّل سؤال:

- ما هو شعورك وأنت تنعمين بالحياة؟! مع احتمال إلغاء حكم الإعدام وتغييره إلى السجن المؤبد.

أجابت أمل وهي تشعر بالأمل:

- أشعر بالارتياح.. فرصة ثانية للتزود بالعمل الصالح.. فالدنيا مزرعة الآخرة!

قالت عواطف وقد خامرها شعور بالأسى:

- كنت قريبة جداً من الشهادة.. مات الخوف في قلبي.. الشهداء أحياء.. صدقوني أنا مشتاقة إلى اللحاق بزوجي.. الشهادة أصبحت أمنيتي..

عندما رأيت «أبو دعاء» شهيداً شعرت براحة عجيبة، وتملكتني حالة من الطمأنينة رغم وحشة المكان!!..

وسألت نفسي ما سر هذه السكينة في قلبي؟! كان وجود فاطمة قربي له أثر في قلبي..

تحدّثت عواطف عن اللحظات الأخيرة للشهيدة فاطمة الحسيني:

- ودعتني فاطمة بحرارة.. ضمتني إلى صدرها بحنان وعاطفة ثمّ استدارت نحو المشنقة تمشي في وقار وسكينة.. وضعوا حبل

المشنقة على رقبتها.. قال لها ضابط السجن وكان قريباً منها:

- فاطمة ما هو طلبك الأخير؟! تريدين شيئاً أو توصين بشيء؟!

الغريب أن فاطمة أشارت بـ «نعم».. طلبت قطعة خبز..

أحضروا لها «صمّونة» اقتطعت منها جزءً وناولتني المتبقي ورجتني أن أوصله إلى الأخوات في سجن الرشاد!

كانت عواطف قد قسمت «الخبز» إلى أجزاء وزعتها على صديقات فاطمة..

لا أحد يعرف مغزى ما قامت به فاطمة.. ما تزال إحدى صديقاتها تحتفظ بهدية فاطمة رغم مرور السنين!

تساءلت نهلة:

- عواطف! ما كان شعورك وأنت أمام المشنقة! كنت خائفة؟

أجابت عواطف بصوت مفعم بالحزن:

- لا.. لم أخف.. الشهادة أمنيتي!

قبّلت نهلة صديقتها وضمّتها إلى صدرها.

قالت عواطف:

- عندما رأيت فاطمة.. واستهانتها بالجلادين شعرت بأنّ المشنقة قنطرة عبور إلى عالم الخلود والأبديّة!

عندما تأجل تنفيذ حكم الإعدام بـ «عواطف وأمل» شعرت عواطف

بالحزن!! كانت تودّ في أعماقها أن ترافق زوجها الحبيب!

قالت لصديقاتها في مساء تلك الليلة الخريفيّة:

- إننّا نسير في طريق الحسين ولابدّ من الإصرار والاستمرار في هذا المسير!

اختتم «المؤتمر» بالبكاء وكانت الفتيات يذرفن الدموع.. وخارج أسوار السجن كانت السماء تمطر على هون.. وقطرات المطر تتساقط بصمت كدموع الأمّهات..

في سكينة تلك الليلة الخريفيّة الأخيرة من عام ١٩٨٢ كانت عواطف مستغرقة في تلاوة آيات من سورة الرعد:

(وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلاَئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ).

وامتزج صوت التلاوة المفعم بحزن الرسالات الإلهية بأصداء رعود بعيدة:

(مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ).

رعود بعيدة تجلجل في الأفق الشرقي الملبّد بالغيوم، وقطرات المطر تنقر النوافذ وتنزلق فوق الزجاج كالدموع..

الأحد ١٤ كانون الثاني ١٩٨٣

لم تشرق شمس يوم الأحد ١٤ كانون الثاني ١٩٨٣.. ظلت مختبئة وراء

ركام الغيوم.. كانت السيّارة «الصندوق» القادمة من سجن «أبو غريب» الرهيب قد وصلت منذ دقائق لتجثم عند الباب الكبير لسجن الرشاد في شرق بغداد.. ترجّل ضابط مفرزة الإعدام لإبلاغ مدير السجن لاتّخاذ الإجراءات اللازمة..

انتشر الخبر في القسم الثالث.. كانت ملامح الحزن تبدو واضحة على وجه الرقيبة سميرة وهي تبلغ «عواطف نوري محمّد» و«أمل عبّاس شوكت» بالاستعداد للتوجّه إلى سجن أبو غريب الرهيب غرب بغداد..

نهضت عواطف وقد أشرقت الابتسامة على وجهها، عليها أن تغتسل غسل الشهادة، وترتدي حلّة الرحيل الناصعة البياض وقد خطت آيات وأدعية وكلمات مقدّسة..

وهكذا أمل كانت ابتسامة ترتسم على وجهها القمحي.. الأخوات والصديقات كن يحضّرن الأكفان والزعفران..

ارتدت عواطف الكفن وأحكمت شدّ النهايات لأنّ الجلادين سوف «يسحلون» الجثمان بعد تنفيذ الإعدام.. اغتسلت أمل غسل الشهادة، وارتدت حلّة الرحيل المطرزة بالآيات والمناجاة..

راحت عواطف تودّع صديقات المحنة.. وكانت ابتسامتها تشعّ وهي توصي أخواتها بالصبر..

قالت أمل:

- هذي المرّة لا أعتقد أني سأعود.

قالت نهلة وهي تذرف الدموع:

- حبيبتي أمل! هذي المرّة نحن سنلحق بكم، ويجتمع الشمل في مقعد صدق عند مليك مقتدر..

غادرت عواطف وأمل القسم الثالث وقد أشرقت الابتسامة على وجهيهما.. وانطلقت أصداء الصلاة على آخر الأنبياء في التاريخ وعلى أهل بيته الطيّبين الطاهرين والأئمّة الميامين.. رفعت عواطف كفّها ترسم إشارة الانتصار، وهكذا فعلت أمل! كان التوديع حفل زفاف هادئ!

وعندما أغلقت بوابة السجن، واختفى طيف عواطف وأمل استحال حفل الزفاف إلى مأتم، وانبعثت الآهات وذرفت الدموع.. حتّى عيون الرقيبات فاضت بالدموع بكت «سميرة» وبكت «أم علي» وغاص القسم في بحيرة من حزن مرير..

سارت السيّارة الصندوق في شوارع بغداد التي سقطت تحت حكم «النغول».. وكان مذياع السيّارة ينعق بأناشيد الحرب العبثيّة التي شنّها البعثيّون على إيران الإسلام.

- احنا مشينا مشينا للحرب!

- أم الشهيد تودّعه جابت ابنها الثاني!

- عرّيس وربعه يزفّونه أو عرسك عيدي.

بغداد غارقة في أحزانها فما زالت طاحونة الحرب الصدّاميّة تخطف الشباب، وتثكل الأمّهات، وتزداد أعداد اليتامى والأرامل..

جلست «عواطف» و«أمل» إلى النافذة الزجاجيّة الصغيرة.. السماء تمطر على هون كما لو أنها تشارك الأمهات الثكالى الأحزان..

وجدت أمل نفسها تتمتم بنشيد الدعاة الخالد:

- باقر الصدر منا سلاما

أي باغ سقاك الحماما

أنت أيقظتنا كيف تغفو؟

أنت أقسمت أن لن تناما

لاحت أسوار سجن أبو غريب الرهيب.. بدا في ضحى ذلك اليوم الشتائي الكئيب نسراً جاثماً فوق ضحاياه..

استقرّت السيّارة الصندوق في إحدى ساحات السجن الموحشة.. نزلت «عواطف وأمل» من الصندوق الأسود.. بدتا كحمامتين أسيرتين تمشيان على هون نحو مبنى خاص في «قاطع الإعدام» «قسم الأحكام الثقيلة».. وتمرّ ساعات النهار ثقيلة..

اعتاد البعثيّون على نقل المحكومين بالإعدام إلى سجن أبو غريب صباحاً إلّا أنهم يبدأون حفلة الإعدام مساءً عند الغروب!

الجلادون يسخرون من الضحايا:

- الله يقول بالقرآن «الأرواح تصعد للسماء وقت الغروب»!!

مع جنوح الشمس للمغيب من وراء جبال الغيوم الداكنة اقتاد الجلادون «عواطف وأمل» إلى غرفة الإعدام حيث تجثم مشنقة كئيبة وكرسي كهربائي!!

ستشرقين يا أمل

من خلال الأمطار والدموع

من خلال الزمان والسنين

المح عينيك تبسمان للربيع

أراك تهتفين:

عواطف!

انظري إنها بغداد!

بغداد فيها نشيد حزين!

بغداد هيا أوقدي الشموع

***

أختاه! يا أختاه! يا أمل!

أكاد أبصر الربيع قادماً

يطارد الشتاء

مرارة الأيّام تنطوي ملاحما

ويهزم الدجل!

كالشمس في السماء

تشرقين يا أمل

عصفورة في الفضاء

بلا انتهاء

كزهرة تشعّ بالعبير

بالشذى

فكفكفي الدموع

ستنفض الردى

وتطرد الكرى

من على عيونها الجموع

وتشرق الشمس

على شواهد القبور

بغداد!

حان موعد النشور

آهٍ لبغداد التي لا تثور..

عواطف.. بلا وداع

كمرفأ مهجور

كشاطئ يبحث في المساء

عن طيور..

عن سفينة..

عن زورق مسحور..

في ليلة ظلماء..

أُتعبها نواح الريح والقبور

حانت لحظة العبور

أُوّاه هكذا الوداع؟!

لا عناق

ولا يداً تلوح

أو ابتسامة الثغور

عواطف!

أختاه! لحظة انتظار

وانطفأ الفنار

وأسدل الستار

أوّاه هكذا يسافر الأحرار

لا قبلة..

لا ابتسامة..

لا شيء.. غير لوعة الفراق

أُوّاه يا أختاه..

هكذا العراق!

عواطف وأمل.. لا وداع سنلتقي!

في يوم «المواجهة» حضرت أم عواطف ومعها زينب شقيقة عواطف وأثير الأخ الصغير الأثير لديها.. وكانت زينب تحتضن دعاء بشهورها السبعة.. جاءوا لـ «المواجهة» وكلّهم شوق لرؤيتها!

وحضر والد أمل عبّاس شوكت وأم أمل جاءوا لرؤية «أملهم»، وجاءت أسرة «آمال الحمداني» ابنة عم عواطف..

لم يسمح لذوي «عواطف وأمل» بالدخول لـ «المواجهة» دون بيان السبب!!

والد «آمال» سأل ابنته عن عواطف فأطرقت برأسها.. قالت بحزن:

- أخذوها لـ «أبو غريب»!!.. أخذوا «أمل».

- متى؟!

- قبل ساعة!!

خيم الحزن على القاعة حيث تقاطرت عوائل المعتقلات للزيارة..

العيون كانت تتطلع إلى «دعاء» ذكرى عواطف.. بنت الشهيدين كانت هي الأخرى تنظر هنا وهناك.. هل كانت تعلم أنها أصغر سجينة في العالم؟!

كانت جنيناً في ظلمات ثلاث داخل ظلمة السجن، فجأة بكت دعاء بصوت حزين بعد ساعات ستصبح يتيمة الأم بعد أن كانت يتيمة الأب في كانون الأوّل ١٩٨٢ وها هي اليوم ستصبح.. يتيمة الأبوين.. فجأة بكت دعاء فأخذتها الجدّة وراجت تبكي معها.

في اليوم التالي تلقت أسرتا «عواطف وأمل» اتصالاً من سجن أبو غريب لمراجعة الطب العدلي واستلام جثماني عواطف وأمل وأوراق الوفاة.

رؤيا

رأيت الشمس في عينيك

وكانت مشرقة..

ورأيت القمرا

ورأيت الحزن عرساً

ورأيت المشنقة

عقد درّ

صاغه المجد وأهداه كراماً بررة

عجباً أختاه للحبل..

إذ يلتفّ حول الزنبقة

يخنق الأنفاس والحبّ

ويحيل الورد والحقل

بقايا مجزرة

من يخبر الجلاد؟

أن الشنق والإعدام عرس لا حداد؟!

إنّه ليس بموت أو نهاية!

إنّه في قاموسنا أعظم غاية!

فاسمعوني أيّها الأوغاد!

يا جيل البغايا القذرة..

إنّه ميلادنا الثاني..

بيوم الآخرة..

وادي السلام ٢٤ شباط ١٩٨٣

عقارب الساعة تشير إلى الثانية ظهراً؛ كوكبة من صديقات عواطف يخطرن في دروب «الوادي» المفعم بالسلام.. رجيحة الخطيب وخلفها ابتهاج النواب وأخريات جئن لزيارة الشهيدة في مرقدها..

أربعون يوماً مرّت على رحيل عواطف الحمداني.. «عيون المها» تقرأ السطور فوق شواهد القبور.. توقّفت رجيحة عند كلمات تشبه طيور مهاجرة:

- مرقد الشابة عواطف نوري محمد

تاريخ الوفاة ١٤ كانون الثاني ١٩٨٣

تسمّرت قدماها.. جثت ابتهاج عند القبر الندي.. الشمس ما تزال خلف السحب الداكنة.. ما تزال قطرات مطر ناعم عالقة في الهواء..

تجمعت في العيون دموع الحزن والأسى..

ابتهاج تتمتم بلوعة

- كنّا وإيّاكم نزور مقابراً.. رحلتم فزرنا كم وسوف نزار..

أما رجيحة فكانت تشدو بكلمات عاشق ترنّم بها في جوار المرقد الطاهر لسيّد الشهداء:

- هنا! يقف الخاطر الملهمُ!

ويسكت فيه ويستسلم..

وتُلمح في جنبات الضريح..

دماء الشهادة إذ تُلثمُ..

وقد قام من حوله الزائرون..

ونار الأسى في الحشا تضرم..

دقائـق الزمـن تمـرّ.. الـوادي الظليـل يغمـره السـلام.. هنـا يرقـد آلاف البشـر بـل ملاييـن البشـر..

هنا في هذه البقعة ترقد «عواطف» بسلام..

لـم يطـل المقـام بحمائـم «الـوادي» كثيـراً.. لاحـت أم عواطـف ومعهـا ابنتهـا زينـب وابناهـا صبـاح وأثيـر.. ونسـوة مـن الأقـارب والأصدقـاء.. جلسـت جـدّة دعـاء عنـد القبـر.. واحتضنـت دعـاء بحنـان غامـر..

نشرت زينب فرشة عرس بيضاء فوق القبر الندي..

نسـائم شـباط النديـة تجـوس خـلال القبـور وقـد جلسـت نسـوة وفتيـات حـول مرقـد الشـهيدة الشـابة.. وضعـت زينـب صـورة لشـقيقتها.. كانـت عواطـف تبتسـم..

انتحبت الأم الجدّة وهي تخاطب ابنتها الراقدة تحت التراب:

- بنتي! عواطف! مبارك العرس!

انتحبت رجيحة.. وراحت ابتهاج تكفكف دموعها بلوعة.. غمرتها رغبة فـي أن تحتضـن عواطـف التـي أطلـت ملامحهـا فـي وجـه «دعـاء».. الحـزن يخيـم علـى المكان.. حطّـت حمامـة بيضـاء قريبـاً مـن مرقـد الشـهيدة.. كان لونهـا ناصعـاً بلـون فرشـة العـرس..

يقـال إن الأرواح تطـوف حـول المراقـد أربعيـن يومـاً ثـمّ ترحـل إلـى أرض الوطـن.

احتضنت رجيحة ذكرى عواطف، وراحت تشمّها وتملأ صدرها بأريج

الشهادة..

الحمامة ما تزال في مكانها تغمرها سكينة الوادي المفعم بالسلام..

السماء الملبّدة بالغيوم تمطر على هون.. النسوة الملفّعات بالسواد يغادرن المكان وقد حلّقت الحمامة البيضاء بعيداً..

دعاء تعود إلى أحضان جدّتها الدافئة، تشعر بالطمأنينة، تبتسم بأمل وهي تتطلع إلى وجه خالتها الشابة زينب.. تمدّ يدها الصغيرة إلى خالها صباح.. الشمس تجنح للمغيب خلف جبال الغيوم الداكنة، النسوة والفتيات يغادرن الوادي الظليل الغارق في الصمت..

وهكذا تمرّ الأيّام والشهور والأعوام.. وفي عام ١٩٨٦ أُفرج عن كوكبة من صديقات «عواطف وأمل»، أفرج عن صديقتها نهلة هادي وعن أحلام وشيماء وإيمان ونورية وآمال وعليّة قاسم و..

كلّ الذين أفرج عنهم بعد سنوات من العذاب كانت قلوبهم تهفو إلى زيارة سجين بغداد الإمام موسى الكاظم عليه السلام..

ذلك الإنسان الذي استحال إلى رمز لمحن السجون وآلام الزنازين..

نهلة تزور المرقد الكاظمي قبل أن تغادر أرض العراق، وتلتحق بأسرتها التي رحلت قبل خمسة أعوام..

لم يعد هناك مكان للأحرار بعد سقوط بغداد بأيدي نفايات السلاجقة المتوحشين..

وأصبح من دأب المحررات من حرائر العراق المقهور زيارة مرقد الإمام

الكاظم كلّما جاد الزمن القاسي في عراق البعثيين السلاجقة مغول القرن العشرين..

بغداد تشرين الثاني ١٩٩٩

في عام ١٩٨٦ أفرج عن شيماء لكنّها بقيت تواجه المحن وصروف الحياة.. استشهد شقيقها إبراهيم، وشاء القدر أن تقترن بصديقه الحميم «عبّاس» الذي اعتقل في سنة ١٩٨٠ و١٩٨٣، وكان له دور فاعل في انتفاضة الشعب العراقي الكبرى في آذار ١٩٩١ في الخامس عشر من شعبان، وتعرّض للمطاردة والاعتقال ١٩٩٥... أفرج عنه لكنّه سرعان ما وجد نفسه يواجه المحن فقد تعرّض للمطاردة وحكم عليه بالإعدام غيابياً..

قرّر الزوجان الهجرة إلى أرض الحريّة.. إلى الأرض التي أشرقت منها الشمس..

وفي أصيل يومٍ خريفي من عام ١٩٩٩، وكان القرن العشرين يلملم أيّامه الأخيرة ولج «عبّاس» و«شيماء» مرقد الإمام موسى الكاظم «سجين بغداد» من باب المراد..

وفي ظلال القبّة الذهبيّة الشماء وقفا لإلقاء التحيّة والسلام على الإمامين موسى الكاظم وحفيده محمّد الجواد..

لمحت شيماء فتاة في سن المراهقة تناهز الرابعة عشرة من ربيع العمر.. يا للدهشة؟! إنها تبدو بدراً في حجابها العصري!.. تبادلت نظرات مع زوجها ورفيق الدرب.. تساءل عبّاس عن سر دهشتها؟!

قالت:

- تشبه عواطف!! صورة طبق الأصل!! في عينيها وأنفها وفمها وملامح وجهها!

- تقصدين أنها دعاء؟!

- نعم.. إنها دعاء.. بنت الشهيدين!

كانت الفتاة المراهقة جالسة إلى جانب امرأة عجوز تقرأ لها زيارة الإمامين الجوادين..

عندما فرغت من الزيارة اقتربت شيماء، وحيّت المرأة العجوز بأدب، وطلبت من الفتاة المراهقة أن تقرأ لها الزيارة..

لبّت الفتاة رغبتها، وراحت تتلو بصوت شجي نص الزيارة..

قالت شيماء في نفسها: حتى الصوت! صوت عواطف. كانت الفتاة مستغرقة في قراءة كلمات الزيارة:

- السلام عليك أيّها الإمام الصالح!

السلام عليك أيّها الإمام السيّد الرشيد!

السلام عليك أيّها المقتول الشهيد!

أشهد أنّك قد مضيت على ما مضى عليه آباؤك الطاهرون

اللهمّ صلّ على محمّد وأهل بيته!

وصل على موسى بن جعفر!

وصيّ الأبرار وإمام الأخيار

المضطهد بالظلم!

والمعذّب في قعر السجون

وظلم المطامير!

ذي الساق المرضوض

بحلق القيود..

عندما فرغت الفتاة من الزيارة قالت شيماء:

- خالة!

- نعم خالة

- حبابة! شسمچ؟

أجابت على استحياء:

- دعاء!

تهاوت أعمدة السنين!!! شيماء تستعيد الوجه الطفولي لـ «دعاء» ذي الأشهر الأربعة!

«دعاء» أصغر سجينة في العالم.. شاء القدر أن تعتقل وهي ما تزال جنيناً عمره ثلاثة أشهر.. شاركت أمها في محن العذاب والتعذيب.. استمدت صمودها من إرادة أم قوية لا تلين..

تجمعت الدموع في الأعماق.. تأخذ طريقها تصّاعد إلى العيون.. عواطف! آه يا صديقتي الشهيدة..

ها أنت تعودين من جديد تطلّين من عيني ابنتك الوحيدة!! صوتك الشجي عاد من جديد.. إنها تشبهك كثيراً في رقتك

في حيائك

وحجابك

لقد تحققت أمنيتك يا صديقتي الحبيبة!

دعاء.. تملأ الفراغ.. الفراغ الذي أحدثه رحيلك..

إنها أنت يا عواطف!

تأكدي أنها ستصبح زوجة صالحة في المستقبل القريب!

اطمئني أيتها الغالية!

ونامي بسلام..

في وادي السلام..

٩ ذي الحجّة الحرام
ذكرى المصرع الدامي لسفير الكرامة والحريّة
مسلم بن عقيل بن أبي طالب
كمال السيّد

ما هو شعورك وأنت تنعمين بالحياة؟! مع احتمال إلغاء حكم الإعدام وتغييره إلى السجن المؤبد.

أجابت أمل وهي تشعر بالأمل:

أشعر بالارتياح.. فرصة ثانية للتزود بالعمل الصالح.. فالدنيا مزرعة الآخرة!

قالت عواطف وقدٍ خامرها شعور بالأسى:

كنت قريبة جداً من الشهادة.. مات الخوف في قلبي.. الشهداء أحياء.. صدقوني أنا مشتاقة إلى اللحاق بزوجي.. الشهادة أصبحت أمنيتي..

عندما رأيت «أبو دعاء» شهيداً شعرت براحة عجيبة، وتملكتني حالة من الطمأنينة رغم وحشة المكان!!..

وسألت نفسي ما سر هذه السكينة في قلبي؟! كان وجود فاطمة قربي له أثر في قلبي..